بسم الله الرحمن الرحيم
تأملات في التحقيق واللغة

د. عبد الكريم اليافي

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسلام على سيّد المرسلين، وآله الطاهرين، وصحبه الطيّبين، وعلى العلماء العاملين، نجوم الإنسانية في الدنيا والدين.

وبعد، فقد كتب المستشرق الروسي الشهير أغناطيوس كراتشقوفسكي في رسالة إلى شقيقته يحدثها فيها عن تعلمه للغة العربية يقول فيها ما معناه «أن اللغة العربية تزداد صعوبة كلما ازداد المرء دراسة لها».

وفي رأينا أن كل لغة إذا ألّم المرء بمعرفتها ثم أراد التعمق فيها وجد أغواراً عميقة يتأبّى استقصاؤها. ثم إن هذه الصعوبة ليست موجودة في دراسة اللغات وحدها، بل في كل علم، لأن المعرفة لا حدّ لها ولا نهاية للغوص في أعماقها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أو التحليق في آفاقها. ويزيد في الصعوبة أن العلوم كلها قد يَرْفِد بعضها بعضاً ولو كانت متباينة الميادين، مختلفة الموضوعات. ولكن لهذا الرفد أو هذا الاشتباك حسنات. فقد يوحي حلُّ مشكلة في بعضها بحل مشكلة في بعضها الآخر. لابأس في أن ندخل مباشرة في الموضوع الذي نريد عرضه. وهو أننا في التراث العربي الإسلامي الواسع قد يلزمنا أن نحقق تاريخ ميلاد علم من الأعلام أو وفاة علم آخر. ونجد في كلا التاريخين أقوالاً متفاوتة.

بهاء الدين محمد بن حسين العاملي عبقرية من عبقريات الحضارة العربية الإسلامية.

ولد سنة ٩٥٣هـ/ ١٥٤٧ م، واختُلِفَ في سنة وفاته بين ١٠٣٠ و١٠٣١ و١٠٣٥هـ وأكثر المترجمين له يذكرون وفاته عام ١٠٣٠ و١٠٣١. ويصعب ترجيح أحد التاريخين على الآخر. ولكنا نعلم في علم السكان الحديث أي الديمغرافية أن الأرقام التي تنتهي بالصفر أو الخمسة ذات جاذبية خاصة بحيث تُقَرَّب منها الأعمار أو تُدوَّر على حسب التعبير الرياضي فتتراكم عندها. وكأن الذاكرة الإنسانية تنسّق في حفظ الأعمار وتأريخها باعتماد حدود العقود من السنين وأوساطها، وتستند في الحفظ إلى تلك الحدود. ولذلك نؤثر نحن رواية تاريخ الوفاة عام ١٠٣١ إن لم نجد دليلاً واضحاً على ترجيح التاريخ الآخر.

ومثل هذا الإبهام نجده في تاريخ وفاة أبي الريحان البيروني. فقد ولد سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م. وأكثر مترجميه يذكرون تاريخ وفاته عام ٤٤٠هـ. بَيْدَ أنا نجده يشير في مستهل كتابه «الصيدنة» إلى ضعف بصره وثقل سمعه وحاجته إلى من يعينه في البحث والتنقيب. وقد توفّي وهو يؤلف هذا الكتاب المفيد الممتع. وهو يقول فيه: «والإنافة على الثمانين أفسدت من المتخيّلة قوّتيْها العمليتين، أعني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المدمع والمسمع. أما سالم المدمعين فليس خالياً عن ظلمة العَشَا بمثل الفحمة بين العِشاء والعَشاء. وأما الأذن فلا تأذن لغير مقارع الأصوات دون تمييز حروف اللغات». يذكر البيروني إنافته على الثمانين ولكن تاريخ وفاته عام ٤٤٠ يجعل أجله وقع في سن الثامنة والسبعين (٤٤٠-٣٦٢). وقد رجعنا إلى كتاب ياقوت الحموي وهو «إرشاد الأريب» أي معجم الأدباء، فوجدنا المؤلف يقول: «ثم أقام بغزنة حتى مات بها أرى في حدود ثلاث وأربعمائة عن سنّ عالية». وينبغي في رأينا أن يكون أصل العبارة في حدود ثلاث وأربعين وأربعمائة عن سنٍ عالية وتكون وفاته في سن الواحدة والثمانين. ونظن أن الناسخ أسقط سهواً أربعين. وإلا فلو كان قد توفي سنة ٤٠٣ كما جاء في طبعتي المستشرق مارغوليوث وأحمد فريد لما كانت سنه عالية. وهكذا نكون في هذا الاختيار والتصحيح قد عرفنا طبيعة الذاكرة وتجاوزنا جاذبية الصفر. والعجيب من الناشرَيْن أحمد فريد والمستشرق أنه قد جاء في مستهل ترجمة أبي الريحان في الطبعتين هذه الجملة «ومات السلطان محمود سبكتكين في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة وأبو الريحان حيّ بغزنة» ولم ينتبها لهذا الخلل الفاضح والبون الواضح بين تاريخين أثبتاهما، كأنهما بعد بضع صفحات قد نسيا ما قرآه قبلها.

يحسن بنا الآن بعد هذين المثلين أن نستطرد قليلاً لجلاء جاذبية العددين الصفر والخمسة في علم السكان لكي نؤكد نقلنا هذه الجاذبية إلى ميدان التحقيق في التراث العربي الإسلامي. ذلك أن تعداد السكان في بعض البلدان قد يعتوره نصيب من الخلل، ولا سيما حين يُسْأل المرءُ عن عمره لا عن تاريخ ميلاده. ويظهر هذا الخطأ أحياناً في نسق الأرقام وتراكمها عند الأعمار التي تنتهي بالخمسة وبالصفر. فلا بد عندئذ من إصلاح هذا الخطأ بطرق إحصائية يعرفها المختصون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعلم السكان. نأخذ مثلاً تعداد السكان عام ١٩٤٧ في مصر، وهو قديم بعض الشيء، من كتاب لويس هنري الذي عنوانه :

Démographie, analyses et modèles, Larousse , ١٩٧٢

(انظر الجدول الآتي)

وهكذا نكون قد قدّمنا في رأينا إحدى الصُّوى للاسترشاد في تحقيق تأريخ الوفاة أو تاريخ الميلاد، بل في تحقيق أمثالهما من التواريخ المخطوطة والمسجلة تسجيلاً غير دقيق كبناء قصر أو غيره وذلك بنقل ملاحظة مهمة في علم السكان إلى بحوث التحقيق.

الأعمار	الرجال	النساء
٥٥	١٤٤ ٣٥٢	١٥ ٠٧٦٥
٥٦	٦ ٤١٨	٤٨٠١
٥٧	٧ ١٥١	٥١٤٩
٥٨	٨ ٨٦٤	٧٣٦٧
٥٩	٤ ٣٢٠	٤٩٨٢
٦٠	٢٣ ٧ ٥٢٧	٢٨٨٠٩٦
٦١	٢٢١٠	١٤٨٣
٦٢	٦ ١٦٠	٥٠٦٦
٦٣	٣٧٨٤	٢٥٧٤
٦٤	٢٣٣٩	١٥٨٦
٦٥	٧٥٦٩٢	٧٥٤٩٠

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هنالك صُوَّةٌ أخرى أو دليل في التحقيق معروف ومتداول. ومن المناسب لفت النظر إليه. وهو اعتماد حساب الجمّل في التأريخ إذا وقع تسجيل بهذا الحساب.

لقد وردت ترجمة صلاح الأخفش الصنعاني في كتاب «الأعلام». يثبت الزركلي وفاته عام ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م. وهو نحويّ من فقهاء الزيدية باليمن. ولكن جاء تأريخ وفاته في كتاب «نشر العرف لنبلاء اليمن» في عام ١١٤٢هـ. وهو لا يتفق مع التاريخ الميلادي ١٨٢٧. وورد في هذا الكتاب رثاؤه وتأريخ وفاته شعراً:

قضى صلاح نجبه أفضل من فيها مشى
إن تأنس الحوربه فكم لناقد أوحشا
في رجب من عامه أرِّخْ صلاح الأخفشا

فإذا حسبنا دلالة حروف «صلاح الأخفشا» في الجمَّل تبيّن لنا تأريخ وفاته عام ١١٤٢ كما جاء في «نشر العرف»، وهو يقابل عام ١٧٣٠م. وربما وقع هذا الخطأ عند نقل العدد (١) في مرتبة المئات فاستبدل به الناسخ العدد (٢).

* * *

ولما كان الكلام على الأعمار وتاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة فلابدّ من التفريق في الحساب بين الأعمار المحسوبة بالسنة الشمسية وهي ٣٦٥,٢٤٢٢ يوماً والسنة القمرية الحقيقية وهي ٣٥٤,٣٦٧يوماً. والفرق بينهما يقارب أحد عشر يوماً. ويستبين بحساب بسيط أن كل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تعدل أربعاً وثلاثين سنة قمرية تقريباً مع زيادة تناهز خمسة أيام لصالح السنة الشمسية. فلابد من الانتباه عند مقارنة الأعمار. ولكن قياس العمر نفسه يتضمن بعض المشكلات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

البسيطة تحسن الإشارة إليها: العمر بالفتح والضمّ وضمتين الحياة. وفي علم السكان هو مقدار الزمن الذي يمر على المرء منذ تاريخ ميلاده. وقد يقيّد بالزمني تفريقاً له بين اعتبارات أخرى. ويقال له أيضاً السنّ. وهي مؤنثة. وهي عبارة عن مقدار العمر. وتفاد بالسنين وحدها أو السنين والشهور والأيام.

وإفادة العمر بالسنين وحدها غامضة. ولابد من التدقيق. فالإحصائيون لا يذكرون إلا السنين المكتملة التي مرت على الشخص في آخر عيد ميلاد مرّ له، على حين تعد شركات التأمين العمر في عيد الميلاد المقبل. وفي كلتا الحالين يقال له العمر المكتمِل.

والعمر المبلَّغ عند التعداد أو في الإحصاء الحيوي هو العمر المقرّب للعدد الصحيح ولا سيما إذا كان عيد الميلاد جدّ قريب.

وقد يصار إلى ضبط السنّ تجنباً للإبهام. فذلك هو العمر المضبوط. ويقال في اللغة العربية للعمر المكتمل مجرَّم ومتجرِّم، كما يقال فيها سنة مجرَّمة أي تامة كأنها تصرمت عن تمام. وفي أساس البلاغة «أقمت عنده تِمَّ عام مجرّم».

* * *

كذلك الكلام في السنة القمرية والسنة الشمسية والأعمار يؤدي إلى بحث بعض القضايا الفلكية الداخلة في الأدب العربي. ولابد من بسطها لإيضاح ما أشار إليه الشعراء القدماء وعلماء اللغة وضلّ الباحثون الحديثون فيه سواء السبيل.

إن المعارف الإنسانية متضافرة. وجدير بالأديب المثقف أن يلمّ بجملتها إلماماً ما كي يتاح له النظر السديد والحكم الرشيد في قضايا الأدب الواسعة والمتباينة. المثل الآتي شاهد على ذلك.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في اللغة العربية كل كوكب يتألق في السماء يقال له نجم ماعدا الشمس والقمر. وفي علم الفلك النجم كوكب له تألق خاص.

الحروف التي يتألف منها لفظ النجم وهي النون والجيم والميم أصل صحيح يدل على طلوع وظهور كما جاء في معجم مقاييس اللغة. وهو لفظ يشمل في الفلك مختلف الكواكب من سيارات ونجوم يقال لها ثابتة وكويكبات وشهب ومذنبات ومجرات وغيرها وإن كان كل نوع يختص باسم أو صفة عند البحث والتنقيب.

السيارات التسع التي تدور حول الشمس ليست مضيئة بذاتها وإنما تتلقى نورها من ضوء الشمس. وتبدو الزُّهَرة أضوأ الكواكب كافة. إذا ظهرت في المساء دعيت بنجم الراعي أو نجم المساء. وإذا ظهرت في الصباح قيل لها نجم الصباح نظراً لوضاءتها وحسن تألقها. وهي أول نجم يظهر عند شفق الغروب إذا ظهرت. وهي آخر نجم يختفي في الصباح عند انبلاج النور واستفاضته. وهي تغيب عن الرؤية في الصباح وفي المساء نحو ثلاثة أشهر حين تكون في قران مع الشمس. ويأتي المشتري أحياناً بعد الزهرة في الوضاءة. وتكاد عُظمى وضاءته تفوق وضاءة أجمل نجوم السماء وأضوئها ، بصرف النظر عن سيارة الزهرة ، وهي الشعرى. النجوم على خلاف السيارات مضيئة بذاتها. وينشأ ضوؤها عن التفاعلات النووية حيث تلتحم أربع ذرات من غاز الهيدروجين H لتؤلف ذرة من غاز الهليوم He مع فضل من الطاقة. السيارات المعروفة داخلة في نظامنا الشمسي. أما الشعرى فهي تبعد عن هذا النظام بما يناهز تسع سنوات ضوئية (٨,٧سنة ضوئية). والسنة الضوئية كما هو معلوم مسافة يقطعها الضوء بسرعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية طوال سنة وهي تعادل نحو ٩٥٠٠ مليار كيلومتر. وبعد الشعرى عنا أكثر بتسع مرات أي أكثر من ثمانين تريليون كيلومتر. وقد ظهر أن الشعرى نجم مزدوج أي هي نجمان يبدوان نجماً واحداً. الوضيء منهما هو النجم المتوقد الذي يلمع بنور أبيض إلى الزرقة لمعاناً يستهوي النظر والقلب معاً. وهو بتوقده أشد وضاءة من الشمس بثلاث وعشرين مرة، وهو أيضاً أضخم منها وأعلى حرارةً إلى حدّ ما. أما النجم الآخر فهو أكثر كثافة وأقل وضاءة وهو معدود فيما يدعى بالنجوم الأقزام البيض. وهو أول نجم قزم أبيض كشف عنه الفلكيون في العصور الحديثة.

كانت قبيلة خزاعة بين العرب القدماء تعبد الشعرى. وقد ورد في القرآن الكريم في سورة النجم «وأنه هو رب الشعرى». ولكن إذا نظرنا إلى التاريخ القديم وجدنا أن المصريين القدماء هم أول من عبدها، وكانوا ينسبون إليها فيضان النيل إذ كانت تطلع مع الشمس وتغرب معها في أشد شهور الصيف قيظاً بين تموز وآب على مدار مدينة منفيس. ووجدوا أن عودة طلوعها مع الشمس في المكان نفسه يستغرق ٣٦٥,٢٥ يوماً بدلاً من ٣٦٥. وهذه الزيادة أُدْخِلَتْ على التقويم اليولياني المنسوب إلى يوليوس قيصر لأن قيصر استعان بالفلكي المصري سوسيجينس Sosigenes من أجل إصلاح التقويم الروماني. وقد ظنّ المصريون والعرب أن قيظ الصيف آت من انضياف حرارة الشعرى إلى حرارة الشمس لأنهما تبزغان معاً طوال شهر تقريباً وتأفلان معاً فلا تظهر الشعرى في أحد آناء الليل طوال تلك المدة. ولهذا كان التعبير اللغوي العربي بالإشارة إلى الشعرى يفيد أيام القيظ وهو شائع الاستعمال كما جاء في لامية العرب المنسوبة إلى الشنفرى مثلاً:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويوم من الشعرى يذوب لوابه أفاعيه في رمضائه تتململ

أو في رثاء تأبط شراً لخاله أو هو منحول إياه:

مُشْمِسٌ في القرّ حتى إذا ما ذكت الشعرى فبرد وظل

يفسر اللغويون الشعرى بأنها كوكب نيّر طلوعه في شدة الحرّ. وينبغي أن نزيد في الجملة فنقول طلوعه في شدة الحر مع طلوع الشمس. وإلا فقد يظن القارئ أو السامع أن الشعرى تظهر فترى في الليل كما ذهب صاحب الروائع حين قال في شرح بيت الشنفرى: «كوكب في الجوزاء يظهر عند شدة الحرّ». وهو لايظهر بل يختفي ويحتجب طول مدة القيظ. وقد استمرت الإشارة الخاطفة عند الشعراء العرب المشهورين في إبان ازدهار الأدب العربي إلى اقتران الشعرى بشدة القيظ.

وفي أساطير العرب أنهما شعريان: الشعرى العبور والشعرى الغميصاء. وعندهم أنهما أختا النجم اليماني سهيل وأن الأولى عبرت السماء عَرْضاً وجازت نهر المجرة فقيل لها العبور وقيل لها أيضاً اليمانية، وهي المرادة هنا في الشعر. وسميت الأخرى الغميصاء لأنها بكت على فراق أختها العبور و لم تستطع اللحاق بها حتى غَمِصت. وتدعى بالشعرى الشامية. وبدلاً من أن يذكر الشعراء القدماء الشعرى باسمها عند إشارتهم إلى حرارة الصيف وصفوا اليوم القائظ الطويل بالعبوري. قال بشار بن برد في قصيدة مشهورة:

ويومٍ عبوري طغا أو طغا به لظاه فما يُرْوى من الماء شاربه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومثل هذا الوصف بلبل بعض الشراح وأتوا بشيء مضحك. قال أحدهم: لعله أراد بالعبوري الطويل نسبة إلى العبور وهو الرجل لم يختن لأنه لم ينقص منه شيء.

بيد أن الشاعر المبدع الكبير بشاراً أشار إلى انقضاء الحر بعد جفاف الثرى حتى كأن الحرّ اعتصر الثرى اعتصاراً:

فلما تولّى الحرُّ واعتصر الثرى لظى الصيف من نجم توقد لاهبه

والمعنى واضح وضوح نجم الشعرى في ليالي الشتاء الصافية. ومع ذلك نجد الشراح يضيعون أي ضياع في شرح هذا البيت.

يرى أحدهم أن الحر محرف عن الَجْزء الذي هو استغناء الوحش بالنبت الرطب. ويرى بعضهم مصيباً أن المراد بالنجم كوكبُ الشعرى. ويزيد فيقول: ويحتمل أن يريد جماعة النجوم أي من طلوع نجوم الصيف وهي النعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية والفرغ الأعلى (هكذا!).

أذكر أني كنت في صباي مولعاً بالنظر إلى الكواكب وإلى مجموعاتها في أجواز السماء وأطرافها وأتحرى خاصة كوكبة الجوزاء التي تظهر الشعرى اليمانية فيها. فمتى غابت عني ليالي القيظ انتظرت شهر أيلول لكي أتأمل تلك المجموعة عند السحر أنقّل الطرف بين منكب الجوزاء ورجل الجوزاء والشعرى الغميصاء الشامية ليقف البصر خاصة على الشعرى اليمانية أضوإِ النجوم وهي تقع وراء الضفة الجنوبية لنهر المجرة.

إن هذه الكواكب تبدو في مستوى واحد على صفحة أديم السماء. ولكن بعضها يبتعد عن بعض بمسافات كبيرة. تبتعد الشعرى اليمانية عنا بمقدار ٨,٧ سنة ضوئية كما سلف وتبتعد أختها الشامية بإحدى عشرة سنة ضوئية. ويبتعد النسر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الطائر بأكثر من خمس عشرة سنة ضوئية. وكل من هذه النجوم ذو تألق خاص وذو وضاءة معينة. وتقاس وضاءة النجوم أي لمعانها بوحدات يدعى المفرد منها بالقَدْر magnitude . ومن المناسب أن ننتبه لاختلاف أبعادها عنا. فقد يلوح نجمان في السماء بقدر واحد هو قدر نسبي ويكون الفرق بين بعديهما عنا كبيراً. ولو كانا على بعد واحد لاختلفت وضاءتهما أشد الاختلاف. وعلى ذلك فإن الفلكيين حينما يقارنون وضاءة النجوم يضطرون إلى اعتبار مسافة واحدة للنجوم جميعاً وهي ثلاث وثلاثون سنة ضوئية. وعندئذ يحسبون القدر المطلق وهو يخبرنا كيف تبدو النجوم لو صُفّت كلها على خط واحد. ولهم في ذلك حسابات دقيقة. وكلما نقص القدر في اعتباراتهم دل النقص على زيادة الوضاءة.

ولا يراد هنا بالقدر الأبعاد الهندسية وإنما يراد مقدار الوضاءة واللمعان. وقد صنف الفلكيون النجوم الشديدة الوضاءة في القدر الأول، وذات الوضاءة المتوسطة في القدر الثاني، ثم التي تقلّ وضاءتها عن ذلك في القدر الثالث وهلمّ جرّاً حتى تصبح الوضاءة خافتة تكاد ترى بالعين المجردة فهي في القدر السادس . فالوضاءة هنا هي الوضاءة المرئية النسبية. وبهذا التصنيف يكون الفرق بين النجوم الشديدة الوضاءة والخافتة خمسة أقدار، واعتبروا وضاءة الأولى أكثر من الأخيرة بمائة مرة.

وبهذا الاعتبار حسبوا نسبة الوضاءة بالعلاقة الرياضية:

ن = $\sqrt{}$ = ٢,٥ تقريباً .

ومعنى ذلك أن وضاءة النجوم من القدر الثاني مثلاً تقل بمقدار مرتين ونصف المرة عن وضاءة النجوم من القدر الأول، وأن التي من القدر الثالث تنقص وضاءتها عن التي من القدر الثاني بمقدار ٢,٥ مرة وهلمّ جرّا.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن ثمة نجوماً أشد وضاءة من التي هي من القدر الأول فوضعوها في صنف القدر الصفر، واحتاجوا إلى أن يعيّنوا وضاءة نجوم أضعف من وضاءة القدر الصفر فاستعملوا الكسور العشرية مثل ٠,٩، ٠,٦، ٠,١. ثم استعانوا بالأعداد السالبة للدلالة على النجوم التي هي أكثر وضاءة من ذات الرقم الصفر. فاستعملوا –١، –١,٦، –٢ إلخ.

فالشعرى التي هي أوضأ النجوم قدرها (– ١,٦) ويأتي بعدها سهيل (–٠,٩) ووضاءته لامعة إلى الحمرة. وهو الذي عناه أبو العلاء المعري:

وسهيل كوجنة الحِبّ في اللو ن وقلب المحب في الخفقان

ويأتي بعده النسر الواقع Véga (٠,١)وبعده العيُّوق والسماك الرامح كلاهما(٠,٢) ثم رجل الجوزاء، ويقال لها في اللغة الأجنبية Rigel (٠,٣)، ثم الشعرى الغميصاء (٠,٥)، ويأتي بعد ذلك النسر الطائر Altair ومنكب الجوزاء كلاهما (٠,٩) ويقال لمنكب الجوزاء إبط الجوزاء ويد الجوزاء وبيت الجوزاء. وهو في اللغة الأجنبية Bételgeuse. ويرى الباحثون أن اللفظ الأجنبي آت من خطأ المترجمين إلى اللاتينية فقد التبس عليهم حرف الياء في يد الجوزاء فقرؤوه باء.

هذا وبالمقايسة يكون للبدر قدر يبلغ (–١٢,٦) وللشمس قدر هو (–٢٦,٨) . فالشمس أشد وضاءة من القمر وهو بدر بأربعة عشر قدراً. وضوؤها تبعا لذلك أسطع من ضوء البدر بنحو $\frac{١٤,٢}{٢,٥}$ # (٤٤٧٠٠٠) مرة.

وفي أفلاك السيارات مع أفضل أحوال الرؤية وأعظم التألق قدر الزهرة –٤,٣ والمريخ –٢,٨ والمشتري –٢,٥ وعطارد –١,٢ وزحل –٠,٤ وأورانوس +٥,٧ ونبتون +٧,٦.

نعود إلى الجوزاء لمكانتها في التراث الأدبي العربي.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تدعى كوكبة الجوزاء عند العرب بالجبّار. جاء في «تاج العروس» «الجبّار اسم الجوزاء وهو مجاز، يقال طلع الجبار لأنها بصورة ملك متوج على كرسي. كذا في الأساس» أي «أساس البلاغة للزمخشري». ودعا العرب الشعرى بكلب الجبار. على أنه لابد من التفريق بين كوكبة الجوزاء وكوكبة الكلب الأكبر التي تقع خلف الجوزاء والتي تنسب إليها الشعرى اليمانية، على حين توجد كوكبة أخرى تقابلها على الطرف الشمالي من ضفة نهر المجرة تدعى الكلب الأصغر التي منها الغميصاء الشامية. كل ذلك قد دقق فيه العرب وبحثوه وسموه.

جاء في أرجوزة الفلكي عبد الرحمن الصوفي قوله في مجموعة الكلب الأكبر:

يتبعه كلب يسمى الأكبر ... كواكب أنوارهن تزهر
يهتكن نوراً حُجُبَ الظلماء ... يَطْلُعْن بعد مطلع الجوزاء
منهن نجم يقدم السفينا ... قد عبَّدوه قبلنا سنينا
أزهر لماع بديع النور ... يعرف بالشعرى وبالعبور

أذكر محاضرة لأستاذ أجنبيّ جليل قال فيها حين تكلم في الفلك ما معناه أننا نتحدث دائماً بالعربية حين نتكلم في الفلك، وذلك نظراً لكثرة أسماء النجوم بالعربية. ولهذا كله لا نستغرب أن نجد في اللغات الأجنبية مصطلحات منقولة عن العربية.

نعرف أنه قد يجري في اللغة العربية تبادل الحرفين السين والشين. فالشعرى معناها المتسعّرة أو ذات السعير وذات الحرارة العالية. وربما كان اللفظ sirius الأجنبي محرفاً عن الشعرى. ولما ترجم الأوربيون كتب العرب سموا الشعرى Canicula باللاتينية أي الكلبة الصغيرة. ومنها جاء Canicular days أي الأيام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحارة نسبة إلى dog star أي نجم الكلب وهي الشعرى. هذا في الإنكليزية. وكذلك chaleur caniculaire في اللغة الفرنسية. وإذا بحثنا في المعجمات الأجنبية وجدنا أن هذه المصطلحات ظهرت في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر الميلاديين. وهذا كاف للدلالة على أن الألفاظ الأجنبية منقولة عن العربية.

لاشك في أن المتقدمين من أبناء ما بين النهرين ومن المصريين ومن اليونان لما تأملوا السماء وأشكال مجموعات الكواكب تخيّلوا لها هيئات إنسانية وحيوانية وإنسانية حيوانية معاً وغير ذلك ما اتسق لهم خيالهم وأراهم وهمهم. وقد نقل العرب أسماء بعض تلك الهيئات والأشكال عن كتاب (المجسطي) لبطليموس من مدرسة الإسكندرية. وقد ضاع أصل هذا الكتاب اليوناني وبقي أصله العربي المترجم. ثم زاد العرب ما اتفق لهم في تلك الأشكال والهيئات وسموها حسب أخيلتهم.

هذا، وللعرب في أشعارهم إشارات كثيرة إلى النجوم.

ويقول العرب لشدة الحرّ في تموز الباحور والباحوراء وجمعهما البواحير وهي ألفاظ مولدة، كما يقول الزبيدي في تاج العروس. ويظنها البيروني معربة عن السريانية أو اليونانية. جاء في كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» قول مؤلفه البيروني: «وهذه الأيام أعني أيام البواحير هي مرسومة بطلوع كوكب الجبار وهو الشعرى اليمانية العبور». ثم يذكر صعوبة نوع من المداواة حسب الطبيب اليوناني السوري الأصل أبقراط في تلك الأيام الحارة، فيقول: «وقد نهى بقراط في كتاب الفصول عن تناول الأدوية الحارة والفصد حوالى طلوعها في زمانه بعشرين يوماً متقدمة وعشرين يوماً متأخرة، لأن ذلك زمان اشتداد القيظ» (ص ٢٦٩).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وورد في الكتاب نفسه أن عليّ بن علي الكاتب زعم أن أول البواحير اليوم الثاني والعشرون من تموز بسبب طلوع الشعرى. ويعمد أبو الريحان إلى نفي أن يكون الحرّ ناجماً عن هذا التطابق وعن إضافة سعير الشعرى إلى سعير الشمس فيقول: «وقد ظن قوم ممن لم تكن لهم دربة بالعلوم الطبيعية ولا بصر بالأحوال العلوية أن التأثير المذكور منسوب إلى جرم هذا الكوكب وطلوعه مع انتقاله، وحتى أوهموا فيه وقالوا إنه لعظم جرمه يسخن الهواء». ثم يدافع المؤلف عن بقراط، فيقول: «وإنما أراد بقراط بذلك الوقت حميم الصيف واشتداد الحر لقرب الشمس من سمت الرؤوس مع ابتدائها في الانحدار في الفلك الخارج المركز عن الأوج. وكان ذلك في زمانه موافقاً لطلوع الشعرى فأطلق القول به علماً منه أن حقيقة الحال لا تخفى على من ارتاض بالعلوم. فلو أن كوكب الشعرى تحرك حتى بلغ رأس الجدي أو الحمل لما انتقل معها الزمان المنهيُّ فيه عن تناول الأدوية». (ص ٢٧٠).

لاشك أن مثل ذلك التطابق مع ما يظهر فيه من الآثار سبب للأوهام والخرافات. وثمة خطأ آخر في العصر الحاضر وهو تعليل زيادة حرارة الصيف على حرارة الربيع بأن أشعة الشمس تقع عمودية على سطح الأرض في فصل الصيف على حين تكون مائلة عليه في فصل الربيع.

وهذا عندنا غلط كغلط القدماء في تعليل حرارة الصيف بطلوع الشعرى مع الشمس في ذلك الفصل. لقد أشار البيروني بأن الشمس تكون في السمت صيفاً ثم تنحدر. وهذا صحيح، ذلك أن متوسط ميل الأشعة على الأرض من زمن الاعتدال الربيعي (أو الربِعي) الذي هو أول الربيع في ٢١ آذار إلى زمن الانقلاب الصيفي الذي هو آخر الربيع في ٢١ حَزِيران يعادل متوسط ميلها على الأرض من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٢١ حَزِيران، زمنِ الانقلاب الصيفي وأولِ الصيف إلى الاعتدال الخريفي في ٢٣ أيلول نهايةِ الصيف وأولِ الخريف.

والسبب في تفاوت الحرارة ربيعاً وصيفاً هو أن الأرض تخرج من الشتاء وهي باردة فتتلقى في إبّان الربيع مزيداً من الحرارة وتدفأ. حتى إذا جاء الصيف وجدها دافئة، فتتلقى كمية الحرارة التي تلقتها في الربيع فتزداد سخونتها فوق دفئها الحاصل.

وفي مقابل هذا نجد الشتاء أبرد من الخريف، مع أن كمية الحرارة الآتية من الشمس تكاد تكون واحدة في كليهما، وكذلك ميلُ الأشعة الشمسية متساوٍ وسطياً في كليهما.

إن أبصار العرب الثاقبة وبصائرهم الصائبة وأعمالهم في الفلك حمل في الماضي مؤلفاً كبيراً وهو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣/ ٨٢٥-٢٧٦/ ٨٨٩) على التنويه بهم والإعجاب بمآثرهم في كتابه «تفضيل العرب على العجم». ولكن العالم الكبير والفلكي الشهير أبا الريحان البيروني في كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية» يهدهد من غُلَوائه في تعظيم العرب وتفوقهم على غيرهم، مع حبه لهم وإعجابه بلغتهم، ويرى ــ وهو على صواب في رأينا ــ أن الزراعين والأكرة في كل موضع وبقعة لم يكن لهم بدٌّ في حياتهم اليومية من علم ابتداء الأعمال وغيرها ومعرفة الأوقات على مثل ما تأتّى عند العرب وعند غيرهم. ثم يقول: «فإن من كان السماءُ سقفَه ولم يكنَّه غيرُها ودام عليه طلوعُ الكواكب وغروبُها على نظام واحد علّق مبادئ أسبابه ومعرفةَ الأوقات بها». ومع ذلك فإنه يضيف إلى قوله هذا فضل العرب في جمع تلك المعارف بأشعارهم وأقوالهم فيقول: «بل كان للعرب ما لم يكن لغيرهم وهو تخليد ما عرفوه أو حدسوه، حقاً كان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أوباطلاً، حمداً كان أو ذمّاً، بالأشعار والأرجوزة والأسجاع، وكانوا يتوارثونها فتبقى عندهم أو بعدهم». ثم يقول: «ولو تأملتها من كتب الأنواء وخاصّة كتابه الذي وسمه بعلم مناظر النجوم ومما أوردنا بعضه في آخر الكتاب لعلمت أنهم لم يَخْتَصُّوا من ذلك بأكثر مما اختص به فلاحو كل بقعة». (ص ٢٣٨ – ٢٣٩).

الخلاصة أنّا توسعنا في شرح نجم الشعرى احتراماً لشعر أبي نواس وبشار وتأبط شراً والشنفرى وغيرهم الكثير. وهم أعزاء علينا في الأدب العربي كمعزّة شكسبير على قلوب الانغلوسكسون!

* * *

هذا، وقد أصبحت أقلام الكتاب والمؤلفين والمحققين فوضى في مجال التنقيط. هذا اللفظ ترجمة حرفية للفظ الأجنبي Ponctuation . وقد يقال له الترقيم. وكلا اللفظين العربيين المقابلين غير موفق. ويعني كلاهما وضع علامات الفصل والوصل بين الجمل لتيسير الدلالة على المراد كالنقطة والفاصلة والأهلة وإشارات الاستفهام والتعجب والأقواس ومقول القول وما إلى ذلك. لقد غدا وضع تلك العلامات في الإملاء العربي بلبلة للفكر، وكأنه تزيين للجمل لا لإيضاح درجات اتصالها ومواضع انفصالها، وصار ضغثاً من الغموض على إبّالة الركاكة. لقد انتبه البلغاء القدماء لهذا الأمر المهم في التعبير، وعالجه علماء البلاغة العربية في قسم المعاني، أول أقسام البلاغة نظراً لمكانته قبل قسمي البيان والبديع وذلك في باب «الفصل والوصل». ولكنا ننظر هنا إلى هذا الموضوع نظرة أوسع وأشمل.

ذلك أن في كل قول أو كتابة نمطاً من الإيقاع الخفيّ المستسرّ يتمشى مع إيقاع نَفَس الكاتب أو القائل. وأظهر ما يظهر هذا الإيقاع في الشعر. ولكنه حاصل في النثر. وهو يجري مع نبض العاطفة والشعور والتفكير. وهو يتبدل مع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الرضا والسخط، والفرح والحزن، والارتياح والغضب، والبشاشة، والألم، والشكوى، وانتهاء الفكرة وجمامها. ولذلك كانت حركة الإيقاع تتغيّر، رفعاً وهمساً، ليناً وشدة، انسياباً وتهدّجاً، استواءً وتموّجاً. فإذا أردنا قراءة الكلام المكتوب لزم أن نعيد إليه حياة النصّ بإعادة الإيقاع الملازم له. ويتمّ ذلك بالفصل والوصل والاستفهام والتعجب والوقف وغيره. وبذلك يتمّ إبراز المعنى والإيحاء والتأثير. فإنه لا حياة للنصّ ولا تأثير من دون إيقاع سواءً في الكلام أو في غيره.

وأعرف الناس بذلك الشعراء والخطباء والبلغاء والممثلون في المسارح والوعّاظ. وفي رأينا أن أوّل من أولى مقاطع الكلام العناية وانتبه لمحاسن الفصل والوصل في قوة التعبير قرّاء القرآن الكريم في التلاوة، إذ أبانوا نهايات الآيات الكريمة المفصلة كاللآلئ الشريفة النبيلة، وأشاروا إلى أنواع المدّ، وإلى أنواع الوقف من لازم وممنوع وجائز وجائز جوازاً مستوي الطرفين، وجائز مع كون الوصل أولى، وجائز مع كون الفصل أولى، ووقف متعانق بحيث إذا وقف القارئ على أحد الموضعين لا يصح الوقف على الموضع الآخر. ولكلٍّ من ذلك علامات خاصة متعارفة. هذا فضلاً عن أمور كثيرة تتعلق بمخارج الحروف يعرفها من مارس أنواع التجويد من ترتيل وتدوير وحدر لكي تتلى آيات التنزيل على أفضل وجه وأتمّه وأسلمه.

كنّا طلاباً بفرنسة في إبان الحرب العالمية الثانية. وقد هرب من هرب منها عند الاحتلال من علماء وموسيقيين وفنانين. فلما وضعت الحرب أوزارها رجع إلى الوطن منهم من رجع.

وكان منهم الممثل المسرحي المشهور لويس جوفي. فألقى غبّ إيابه من الولايات المتحدة الأمريكية محاضرة في جامعة «السُّرْبون» تكلم فيها على حسن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الإلقاء. ومن جملة كلامه أنه في طريق إيابه عرّج على المغرب العربي الأقصى وزار فيه بعض المساجد والمتاحف واطلع على نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بخط جميل أسود، وعلى بعض الألفاظ علامات حُمْرٌ. فسأل عن تلك العلامات ماهي؟ فأُجيب بأنها علامات مواضع الوقف وكونها حمراء إشارة إلى أنها كالدم الساري في التلاوة الحيّة. فضرب للحضور ذلك مثلاً على أثر التلاوة وحسن الإلقاء في الأسماع والقلوب والأفكار بعد أن يعرف القارئ ضوابط التلاوة.

وقد جاء في كتاب «النشر في القراءات العشر» للإمام الحافظ محمد الدمشقي المعروف بالجزري في فصل «الوقوف والابتداء» هذا التنبيه: «لما لم يمكن القارئ أن يقرأ السورة أو القصة في نَفَس واحد ولم يجز التنفس بين كلمتين حالةَ الوصل، بل ذلك كالتنفس في أثناء الكلمة، وجب حينئذٍ اختيار وقف للتنفس والاستراحة، وتعيَّن ارتضاء ابتداءٍ بعد التنفس والاستراحة، وتحتّم ألاّ يكون ذلك مما يُخلُّ بالمعنى ولا يُخِلّ بالفهم، إذ بذلك يظهر الإعجاز ويحصل القصد. ولذلك حضّ الأئمة على تعلّمه ومعرفته كما قدمنا عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: الترتيل معرفة الوقوف وتجويد الحروف» (ج١ ص٢٢٤ مطبعة التوفيق، دمشق ١٣٤٥).

ثم يقسم المؤلف الوقف إلى تامّ وكافٍ وحسنٍ وقبيح، مع الأمثلة.

وكان كتبة القرآن الكريم يستعدون، لكتابة المصحف بخطوطهم الجميلة، بالنظافة والوضوء والخشوع والتعبُّد. وكانوا يشيرون إلى أنواع الوقف وإلى الحركات الصوتية إشارات متفاوتة وملونة كما يتبين ذلك في كتاب «المقنع» للإمام أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ص ١٤٠- ١٤٢) تحقيق محمد أحمد دهمان.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا وقد غبر نساخ المخطوطات العربية قديماً على أن يضعوا دائرة صغيرة عند نهاية الفقرة. وتواطأ المدققون بعدهم على وضع نقطة في وسط الدائرة إشارة إلى تدقيقهم الكتاب المخطوط في بعض الأحيان.

وهكذا نجد أن مواضع الفصل والوصل قد سبق إلى وصفها علماء القراءات أولاً ثم النساخون الوراقون بعض الشيء كما انتبه لشأنها علماء البيان وأرباب البلاغة.

إن علامات الفصل في اللغات الأجنبية شرط لصحة الإملاء عندهم ولفهم المراد من المكتوب حتى إذا تغيّرت مواضع علاماته كالنقطة والفاصلة مثلاً تغيرت عندهم المعاني. فهم يلتزمون تلك العلامات أيّ التزام. وهي عندهم كالمفاصل في الجسم الحيّ.

وكما تتفاوت المفاصل في وظائفها وحجومها وأشكالها كذلك تتفاوت علامات الفصل في الكتابة. وهذا كله لجعل النص أيسر تناولاً وأقرب فهماً ولبث روح الحياة فيه وليشفّ عن مقاصد الكاتب وخلجات فكره وضميره. وعلى القارئ أن يعيد إلى النّص حياته عند قراءته ما تسنّى له ذلك وعلى الشكل الذي يناسب فهمه له.

وفي رأينا أن إعراب أواخر الألفاظ في اللغة العربية عند الكلام يقع مواقع علامات الفصل والفصل عند الكتابة ويقوم مقامها فيهما جميعاً. ولابدّ من إيضاح هذه الفكرة بمثل نأخذه من علم البلاغة العربية. يأتي في طليعة هذا العلم فنّ المعاني قبل فنّي البيان والبديع ويبحث فيما يبحث دواعي ترك المسند ومسوّغاته من إيجاز ومن تنبيه السامع عند قيام القرينة ومن اختبار تنبّهه ومن تعميم يتلوه تفصيل رغبةً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في التفخيم والتأثير. يذكر علماء المعاني من الشواهد قول ضرار بن نهشل يرثي أخاه يزيد، ويعزى للحارث بن نهيك ولنهشل بن حَرِيّ ولغيرهم:

لِيُبْكَ يزيدٌ: ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

البيت من شواهد كتاب سيبويه وشواهد تلخيص المفتاح. يُشيد الشاعر الراثي بمكانة يزيد قبل موته وأنه من حقّه أن يبكيه الباكون حين مات، فعمّم ببناء الفعل للمجهول ثم عمد إلى التفصيل ببيان أنه كان يغيث المستنجد به في الخصومة، ويعين من يسأله النصرة بلا وسيلة من قرابة أو معرفة ممن أهلكته الشدائد وقَسَتْ عليه صروف الدهر إذ لم يبق لهما ناصر أو مغيث. فضارع فاعل لفعل محذوف تقديره يبكيه، ومختبط معطوف عليه أي ويبكيه مختبط. وهكذا نجد أن الإعراب وشكل بناء الفعل وإعراب المسند إليه وترك المسند (يبكيه) في الكلام وفي إلقاء الشعر ضرب من ضروب علامات التنقيط بالمعنى الذي نستعمله هنا أي ponctuation ، بحيث نضع في الكتابة نقطتين بعد الفعل المبني للمجهول ليكون ذلك معيناً على فهم المراد.

أما في بعض اللغات الأجنبية فغياب الإعراب عن أواخر الألفاظ يؤدي إلى ضرورة وضع علامات التنقيط في الكتابة إذ لا يفهم المراد من النصّ بالدقة التامة إلاّ بعد التزامها. وإنّا لنعدّ الإعراب الصحيح في اللغة العربية مزية من مزاياها.

قال ابن خلف شارح كتاب سيبويه: لما قال لِيُبْكَ يزيد عمّ المأمورين بالتفجع على هذا الميت والبكاء عليه من كثرة الغَناء (الكفاية). ثم خصّ هذين الضعيفين من جملة الباكين عليه لشدة احتياجهما إليه. ثم قال نقلاً عن بعضهم: إن الإبهام على المخاطب، في مثل هذا النحو الذي يقصد به العموم، تعظيم للمقصود ومدح عميم (انظر خزانة الأدب).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويعلق أبو يعقوب يوسف السكّاكي مؤلف كتاب «مفتاح العلوم» بأن «هذا التركيب متى وقع موقعه رفع شأن الكلام في باب البلاغة إلى حيث يناطح السماك. وموقعه أن يصل من بليغ عالم بجهات البلاغة، بصير بمقتضيات الأحوال، ساحر في اقتضاب الكلام، ماهر في أفانين السحر إلى بليغ مثله مطّلعٍ من كل تركيب على حاقّ معناه وفصوص مستتبعاته. فإن جوهر الكلام البليغ مَثَلُه مَثَلُ الدرّة الثمينة لا ترى درجتها تعلو ولا قيمتها تغلو ولا تُشترى بثمنها ولا تجري في مساومتها على سننها ما لم يكن المستخرج لها بصيراً بشأنها، والراغب فيها خبيراً بمكانها.»

ولما دالت الدول وانتقلت مراكز الحضارة الإنسانية وتقدم الغرب في العلوم والآداب والفنون نهض علماء غيارى في تباشير النهضة العربية الحديثة إلى وضع قواعد للفصل بين الجمل في الإملاء العربي. ولكن قلة الالتزام بها ووضعها في غير مواضعها المناسبة أدخلا كدورة في صفاء التعبير وتشويشاً في البيان. وكم تمنّينا أن ينهض نفر من المختصين مرة جديدة فيعيدوا النظر في قضايا الفصل والوصل وعلامات الترقيم أو التنقيط ويربطوا بين الحاضر والغابر ربطاً متفهماً بعد الفوضى الراهنة.

على أن الكتابة الحاليّة الخالية من علامات التنقيط تجعل القارئ يتفكر في القراءة الصحيحة كما يتفكر في الإعراب إن كان مبتدئاً وكان الكلام غير مشكول. وقد يتاح له أن يقرأ العبارة بشكلين صحيحين مختلفين وبمعنيين متقاربين أو متفاوتين. وهذا جائز في الكتابة الأدبية إن كان الكاتب يودّ الغموض ويرمي إلى الإبهام ليترك للقارئ اختيار الوجه الذي يريد، أو يخوّله حزر الوجه الذي يقصده أو التردّد بين الوجهين. ذلك أن في الغموض الفنيّ لدى الفنان البارع الصنّاع قيمة. وقد عمد بعض شعراء الغرب إلى إغفال علامات الفصل رغبة في إبهام المراد وترك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حزره للقارئ. وعلى القارئ أو السامع أن يتشوَّف نحو المقصود. وأول من غمد إلى ذلك في علمنا الشاعر الفرنسي أبولّينير في العصر الحديث. وإذا جاز هذا أحياناً في الكتابة الأدبية فإنه يمتنع حتماً في الكتابة العلمية الحديثة.

* * *

أنتقل إلى نقطة أخرى وهي أنه لابد للباحث الذي يقوم بتحقيق كتاب أو ديوان من الشعر من أن يكون قد درس النصوص دراسة كافية ووافية وتفهمها وأضاف إليها معرفة واسعة لأفكار الشاعر أو الكاتب وطريقتِه في الكتابة، ولابد له من أن ينعم النظر في سياق الجمل المبهمة أو المحرفة إن وقع تحريف أو إبهام كي يسهل عليه تلافي الزلل وتحاشي الخطأ. والخطأ والزلل آفة المخطوطات والكتب المطبوعة.

في الحديث عن أبي العلاء تأتي رسالة الغفران في مقدمة أعماله المهمة. ولقد توقفت بعض التوقف حين كنت قرأت النص الذي يجعل فيه المعري صديقه ابن القارح يساجل عنترة العبسي ويقول فيما يقوله له:

«وإنّي إذا ذكرت قولك: هل غادر الشعراء من متردَّم

لأقول: إنّما قيل ذلك وديوان الشعر قليل محفوظ. فأما الآن فقد كثرت على الصائد الضباب وعرفت مكان الجهل الرباب. ولو سمعتَ ما قيل بعد مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ــ لعَتَبْتَ نفسك على ما قلت، وعلمت أنّ الأمر كما قال حبيب بن أوس:

فلو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت حياضك منه في العصور الذواهب

ولكنه صوب العقول إذا انجلت سحائب منه أُعقبت بسحائب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيقول: وما حبيبكم هذا؟ فيقول: شاعر ظهر في الإسلام وينشده شيئاً من نظمه.

فيقول: أما الأصل فعربي. وأما الفرع فنطق به غبيّ. وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب. فيقول، وهو ضاحك مستبشر: إنما ينكر عليه المستعار. وقد جاءت العاريّة في أشعار كثير من المتقدمين. إلا أنها لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب بن أوس.»

لقد حققت الرسالة الدكتورة بنت الشاطئ بمهارة ونجاح إلى حدّ بعيد. ولكن فاتتها ــ كما تفوت كثيراً من أمثالها ــ الهداية إلى بعض التصحيحات. هنا أتحدث عن هذا النص الذي يتعلق بالمعري وأبي تمام حيث تحيَّرتْ واستهدت غيرها من المحققين فلم تعثر على الصواب في جملة«وعرفت مكان الجهل الرباب» حين ذهبت إلى تأويلات غريبة وعجيبة بعيدة عن ذهن المؤلف البارع. وليتها انتبهت لسياق الكلام ولشعر أبي تمام الذي يستشهد به ابن القارح وهو أن الشعر صوب سحائب العقول يتلو بعضها بعضاً فلا جدب ولا قحط فيه ولا نهاية للمعاني ولا للشعر. وعندئذ كانت تستطيع أمام الوابل الصيب من المطر أن تفكر في الغرق وتقرأ غَرّقَتْ بدلاً من عرفت وأن تلمح أن كتابة الجهد بالدال التي مدها الناسخ بعض الشيء كما كانوا يكتبون جعلتها تقرأ الجهل بدلاً من الجهد. والجهد هنا هو القحط. وكان الشعراء يستعملونه بهذا المعنى في أشعارهم. وقد تتذكر قول جرير للخليفة عمر بن عبد العزيز:

أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت أم تكتفي بالذي بُلِّغت من خبر

أي خبر القحط الذي أصاب البلاد في تلك السنة كما يستعملون لفظ السنة للدلالة على القحط والجَدب والضيق والجهد. فتصير الجملة تعبيراً أصيلاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جميلاً وهو غرّقت مكان الجهد الرباب. والرباب هنا بفتح الراء معناه السحاب. وعندئذ يزول الإبهام ويُصحَّح التحريف وتتجلى براعة المعري في تعبيره المتسق مع معنى شعر حبيب.

* * *

هذا وقد انتبه المعري وهو أعلى المدققين والمحققين إلى النهج الجديد الذي سلكه أبو تمام في شعره وهو اعتماده على الاستعارة والمجاز فشعره مفعم بهما وبالتشابيه والتلميحات التي تحتاج إلى تأمل وإلى ما فيها من جدّة وأصالة كما فيها من غلوّ ومبالغة.

ونذكر بهذه المناسبة أن المعري يرى أن الحياة قائمة على الحاجة إلى الغير.ولابد للمرء لضمان حاجاته من أن يعتمد على خارج ذاته في الطبيعة وفي منجزات غيره من الطعام واللباس وغيرهما. فحياة المرء قائمة على الاستعانة بما يتداوله الناس بينهم من سلع وما يستعيرونه من حاجات فهي كلها عواري. وعندئذ ما أشبه الحياة بشعر حبيب الذي أكثره عواري فهو يقول:

وجدتُ عواريّ الحياة كثيرة كأن بقاء المرء شعر حبيب

ونرى مع ذلك أحد شراح اللزوميات يقول: «نحن نستعير من الحياة أشياء كثيرة تفيض عن الحاجة كأننا سنخلد كما يخلد شعر أبي تمام». فمثل هذا الشرح لا يستقيم ولا ينسجم مع ما يريده المعرّي!

انتبه المعرّي إذن لكثرة الاستعارات والمجازات في شعر أبي تمام. وحبذا لو كان انتبه أيضاً لكثرة تحرّيه التضاد والمقابلات بين الأشياء وتركيب الأشياء المتضادة والمتقابلة أحياناً على النهج الجدلي الذي أبنّاه لدى أبي تمام وعددناه أكبر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مجدد في صيغة الشعر العربي بحيث جعله فناً جديداً خرج به عن المذهب الذي كانت تعرفه قبائل العرب، وإن كان حافظ على شكله الخارجي لفظاً وبحراً وقافية.

* * *

لقد تطوّرت اللغة العربية ما شاء لها التطور. وغاب بعض الألفاظ في بعض معانيه عن الاستعمال مع لطفه وقوة إيحائه. منها لفظ عزّ بمعنى غلب. جاء في القرآن الكريم «إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أَكْفِلْنيها وعزّني في الخطاب». (سورة ص، ٢٣). عزني هنا بمعنى غلبني. وفي الأمثال العربية القديمة من عزّ بزّ أي من غلب سلب.

وقال مجنون ليلى:

كأن القلب ليلة قيل يُغْدى ... بليلى العامرية أو يراح

قطاة عزّها شرك فباتت ... تعالجه وقد علق الجناح

والمضارع يَعُز بضم العين. والمصدر عَزّاً.

وهنالك صيغة أخرى وهي عزّ يَعِزُّ بكسر عين المضارع بمعنى صار عزيزاً والمصدر عِزّاً وعزّة وعزازة وبمعنى قل الشيء وندر.

وثمة صيغة ثالثة وهي عزّ يَعَزّ بفتح العين في المضارع بمعنى اشتدّ وعظم.

يقال عزّ عليّ أن تفعل كذا ويَعَزُّ علي...

ولا يروعنّ القارئ والسامع كثرة الصيغ. فلو كتبناها بالحروف اللاتينية وأثبتنا الحركات الصوتية لكانت أفعالاً متفاوتة الإملاء بمعان متفاوتة وإن كانت بين الحروف الصامتة قرابة الاشتقاق. وليست هذه القرابة بحاملة لنا على توحيد الصيغة وتوحيد المعاني إذ في هذا التوحيد قضاء على سعة اللغة ودقة بيانها وحسن إيجازها.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وليس بغريب إذا ورد هذا اللفظ عزّ في شعرٍ جميل أن يلبسه الناسخ بلفظ مصحف هو غرّ بمعنى خدع ويجري هذا التصحيف على الأدباء والمحققين. غير أن هذا اللبس ليس سليماً ولو كان بين الخداع والغلبة نوع من الارتباط. إن معنى الشعر واستفادة الشعراء بعضهم من معاني بعض والمحاكمة كل ذلك يملي علينا أن نقرأ عزّني لا غرّني في قول أبي عبادة البحتري:

عزّني حبه فأصبحت أبدي منه بعضاً وأكتم الناس بعضا

ربما نظر الشاعر في بيته هذا إلى بيت جرير في قصيدته الجميلة حين قال:

لقد كتمت الهوى حتى تَهَيَّمني لا أستطيع لهذا الحب كتمانا

ومعناه أن الشاعر كتم الهوى جهده كما هي عادة العذريين والمحبين الصادقين، ولكن التباريح غلبت الكتمان وجعلت المحبَّ عاجزاً عنه لا يدري ما يفعل. فلابد من البوح تنفيساً عن النفس وتخفيفاً من عبء الخوالج والوساوس. أي إن الحب قد غلب طاقة المرء عن حفظه فأصبح يبدى منه بعضاً ويكتم بعضاً آخر. هذا هو معنى بيت البحتري. ولا موضع هنا للغرور أو الخداع إلاّ أن لفظ غرّني أسهل وأكثر استعمالاً وأقرب إلى الابتذال وأشد مبادرة عند القراءة، وهذا ما تؤكده نظرية الغشتالت في بحث الإدراك البصري أو السمعي ولكنه أبعد ما يكون من صحة التركيب واتساق الأفكار والعواطف. هذا وإن نسخ ديوان البحتري كلها حتى المحققة منها أثبتت غرّني دون محاكمة ودون انتباه لتقاليد الشعراء في الشكوى وأغفلت عزّني وهو في رأينا الأصل والصواب.

ومثل هذا التصحيف أصاب بيت قيس بن ذريح:

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا لي الليل هزتني إليك المضاجع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لو كانت المضاجع هزّت الشاعر المحب كما تهزّ الأرجوحة لهدهدته ونام أولو كان يتقلب عليها من أرق وسهد وتململ لأتى بتعبير آخر. وإذا صححنا العبارة فقلنا هرّتني إليك المضاجع استغرب الأدباء هذا التصحيح. ولا سيما أن البيت ورد في كتب الأدب على الشكل السالف بالزاي حتى في حديث الأربعاء لزعيم الأدب العربي طه حسين. ولكننا نستند نحن إلى رواية الزمخشري في كتابه «أساس البلاغة» في مادة هرّ فنجده ينسب البيت إلى ابن الدمينة ويقول في هذه المادة: «وهرّ في وجه السائل تجهَّمه، وفلان هرّه الناس إذا كرهوا ناحيته، قال:

أرى الناس هروني وشُهّر مدخلي وفي كل ممشى أَرْصَدَ الناس عقربا

وهرّ الكأس إذا كرهها، وهرّ الحرب. وقال ابن الدمينة:

نهاري نهار الناس حتى إذا دنا لي الليل هرتني إليك المضاجع»

ومعناه عندنا أن المضاجع كرهته مجازاً. فهو الذي كره المضاجع فلم يأْوِ إليها ولم ينم وبقي مُسَهَّداً يفكر في حبيبته. على أن ثعلباً شارح ديوان الدمينة ذكر الروايتين ونحن نؤثر رواية الزمخشري. وقد ضاق بعض الرواة بلفظ هزّتني فاستبدل به شاقتني

* * *

ولأبي الطيب المتنبي بيت أصابه مثل هذا التصحيف. فغالبية نسخ الديوان تثبت قوله:

ما مقامي بأرض نخلة إلاّ كمقام المسيح بين اليهود

لأن نخلة هنا أقرب إلى الذهن من نحلة التي هي الأصل والتي أشار إليها ياقوت في «معجم البلدان» وإلى أنها قريبة من بعلبك وهي التي عناها فيما يحسب أبو الطيب في بيته.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكننا نرى ــ خلافاً لياقوت ــ أن المتنبّي أراد قرية بالقرب من جبل الأربعين ما زالت قائمة في شمالي بلاد الشام بين حمص في الوسط وخناصرة في الشمال ضمن منطقة أمضى أبو الطيّب شطراً من حياته فيها حيث يقول:

أحب حمصاَ إلى خناصرة وكل نفس تحبّ محياها

ذكر ابن شدّاد (المتوفى عام ٦٨٤هـ) نحلة في كتابه «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» فقال في الصفحة ١٢٨ (طبعة دمشق ١٩٥٣): «وفي ذيل جبل بني عُلَيْم قرية يقال لها نحلة، فيها مقابر يشاهد عليها نور في الليل. فإذا قصدها القاصد وقرب منها لا يشاهد شيئاً من النور أصلاً. وقد شاهدت ذلك دفعات. وعلى هذه المقابر كتابة بالرومية (اليونانية) ».

وجبل بني عليم هو جبل الأربعين شهر قديماً نسبة إلى قبيلة بهذا الاسم، ثم اشتهر منذ القرن السابع باسم جبل الزاوية بعد انقراض تلك القبيلة نسبة إلى زاوية أنشأها أحد أولاد عبد القادر الكيلاني. ثم إن إضافته إلى الأربعين لمقام فيه يعرف بمقام الأربعين .

وذكر نحلةَ محمد بن الشّحنة الحلبي الحنفي (المتوفى عام ٨٩٠هـ) في كتابه «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب» الصفحتين ١٠٢، ١٣٠ (دار الكتاب العربي. دمشق). ولم يخرج في كلامه عما جاء في «الأعلاق الخطيرة».

وذكرها أحمد وصفي زكريا في كتابه «جولة أثرية في بعض البلاد الشامية» ص١٢٧، دار الفكر.

ووصف «المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري» قرية نحلة بأنها في جبل الزاوية تتبع منطقة أريحا، وتقع على سفحي وادي نحلة.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أما خناصرة فيذكرها المعجم بلفظ خناصر. وهي بلدة في الأطراف الجنوبية لهضبة حلب، ومركز لناحية خناصر تتبع السفيرة في محافظة حلب.

هذا مع وجود قرية باسم نحلة في البقاع قرب بعلبك.

* * *

راجت شهرة بعض المحققين في عالم التحقيق. وربما كانوا يستحقون تلك الشهرة. ومع ذلك نعجب من ذهولهم. من أشهرهم عبد السلام محمد هارون الذي حقق كتاب «الحيوان» للجاحظ. نجده في الصفحة ١٥١ من الجزء السابع يثبت شعراً لرجل من قريع يرثي عينه ويذكر طبيباً:

لقد طفت شرقيَّ البلاد وغربها فأعيا عليّ الطب والمتطبب

يقولون إسماعيل نقّاب أعين وما خير عين بعد ثقب بمثقب

إلى آخر الأبيات الخمسة. ويظهر الإقواء في البيت الأول. ونرى أن الأصل: فأعيا عليّ الطب للمتطبب. كذلك أبقى تصحيف نقاب في الشطر الأول من البيت الثاني مع أن الشطر الثاني يذكر الثقب والمثقب فكان ينبغي للمحقق أن يثبت الشطر: يقولون إسماعيل ثقاب أعين.

وهذا البيت يظهر معالجة العرب القدماء للعين التي أصابها الزَّرَق. وقد أطلق أطباء العرب لفظ القدح على الثقب، أي إخراج الماء الفاسد ــ على حد تعبيرهم ــ من العين. والبيت الثالث:

يقولون ماءٌ طيّب خان عينَه وما ماء عين خان عيناً بطيب

وبمناسبة الكلام على عبد السلام محمد هارون جاء في الجزء الخامس من «الحيوان» (ص ١١٢-١١٣) قول أحد علماء الكلام في النفس: «بل أزعم أن النفس من جنس النسيم. وهذه النفس القائمة في الهواء المحصور عَرَضٌ لهذه النفس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المتفرقة في أجرام جميع الحيوان. وهذه الأجزاء التي في الأبدان هي من النسيم في موضع الشعاع والأكثاف والفروع التي تكون من الأصول». ولم يعرف المحقق أصل التحريف في الأكثاف وهو الأكساف أي القطع من الشيء. وهي أيضاً الكسوف جمع الجمع لِكسَفٍ وكِسْف. وهذان جمعان لِكسْفَةٍ أي القطعة من الشيء. وقد ورد الكِسْفُ مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة الطور. وورد الكِسَفُ أربع مرات في سورة الإسراء والشعراء والروم وسبأ. وهذا التفصيل لبيان أن اللفظ ك س ف ليس حوشياً ولا غريباً. وقد كتبنا مرة مقالاً ضافياً عن الأخطاء التي يزلّ فيها المحققون المشاهير في مجلة «الموقف الأدبي» السورية.

* * *

في اللغة العربية ألفاظ يقال لها الأضداد. ومعنى ذلك أن اللفظ منها يفيد معنيين ضدين. ومن شأن اللغويين ومؤلفي المعجمات أن يجمعوا الألفاظ ويفسروا دلالاتها. وقلّ منهم من يتأمل معنى اللفظ الأصلي وانتقال هذا المعنى إلى معنى آخر قد يكون مقابلاً له وضده لسبب من الأسباب. من الأضداد لفظ وراء. ويختلف اللغويون فيه أمهموز هو أم معتل الآخر. وهو لفظ مؤنث ومذكر. وهو مبنيٌّ مثلث الآخر. تصغيره وريّئة ووريّة بتشديد اللام (أي الياء) لأن اللفظ المؤنث إذا صُغِّر ظهرت تاء التأنيث فيه. ولكن تذكير اللفظ يجعل تصغيره وُرَيِّئاً ووُرَيِّاً. ولم تذكرهما المعجمات إيجازاً. وأخطأ الشرتوني في «أقرب الموارد» والبستاني في «محيط المحيط» حين ضبطا التصغير بتسكين الياء. واللفظ يدل على الخلف ويدل على الأمام. ويبدو ذلك مشكلاً. ولو تأملنا بعض التأمل المواضع التي يدلّ عليها لفظ وراء على الوراء وعلى القُدّام لزال الإشكال. فهو في الأصل يدل على الخلف.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن قد يكون الشيء قدّام المرء ولكنه مستتر عنه أو لا يوليه اهتمامه أو هو غافل عنه. فهو مُختفٍ فكأنه وراءه لا يراه. فاستعمال وراء بمعنى قدام في رأينا نوع من المجاز أو هو استعارة ضدية، نستعمله حين ندل على الغفلة عن الشيء ولو كان أمامنا في المكان أو الزمان وحين نريد التنبيه على هذه الغفلة.

ورد وراء في القرآن الكريم في أربعة وعشرين موضعاً بعضها بمعنى أمام لكن مع الغفلة وعَدم الانتباه أو قلة الرؤية الواضحة. جاء في سورة إبراهيم «من ورائه جهنم ويُسْقى من ماء صديد» (١٦). وفي السورة نفسها «ومن ورائه عذاب غليظ» (١٧). وفي سورة الكهف «وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا»(٧٩). وفي سورة المؤمنون، «ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» (١٠٠). وفي سورة الجاثية «ومن ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً» (١٠). وفي سورة الإنسان: «إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً» (٢٧). ولا غرو أن تتعدد في القرآن الكريم المواضع التي تدلّ فيها وراء على قدام مع الغفلة وعدم الانتباه لأن من غاياته التنبيه والتحذير والإرشاد وطلب الرؤية الواضحة.

وجاء في الشعر القديم، في شعر لبيد بن ربيعة، وكان من المعمّرين:

أليس ورائي إن تراخت منيّتي لزوم العصا تُحْنى عليها الأصابع

أخبّر أخبار القرون التي مضت أدبُّ كأني كلما قمت راكع

أي أمامي إذا عشت ومسني الكبر ولزمني اعتماد العصا للقيام والمشي، ويجدر بي ألاّ أغفل عن ذلك.

جاءت وراء في الأمثلة السالفة ظرف زمان. ويذكر اللغويّون استعمال وراء ظرف مكان بمعنى أمام أيضاً، ويستشهدون بقول الفقهاء في المصلّي: «قاعداً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويركع بحيث تحاذي جبهته ما وراء ركبته». أي قدامها لأن الركبة تلي ذلك المكان فكأنّه وراءها بالنسبة إلى الفقيه الراصد أمام المصلي.

وهذا كله عندنا من إيجاز اللغة العربية ومن قوة بيانها الذي لا يدانيه بيان، والذي لا إبهام فيه. وإنما فيه تركيز وشدة إيحاء.

أما إذا أريد القدّام دون خفاء فلا يجوز إلا استعمال أمام.

جاء في القرآن الكريم في سورة القيامة: «بل يريد الإنسان ليفجر أمامه».(٥) أي فيما يستقبله من الزمان عامداً وناظراً أمامه بوضوح.

وقال ابن الرومي في مطلع قصيدة مؤثرة يرثي بها أبا الحسين يحيى من أحفاد أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه:

أمامَك فانظرْ أيَّ نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج

فهو يطلب إلى المخاطب أن ينظر بوضوح تام ويختار أقوم الطريقين، بل أن يختار الطريق المستقيم الذي هو حبّ آل البيت ليس غير، وما سواه طريق أعوج.

ولكن وراءَ كثيرة الاستعمال فهي ظرف مكان وظرف زمان. وهي أكثر من أن تكون من الأضداد كما يدعي بعض علماء اللغة. إنها تفيد أيضاً معنى سوى أو فضلاً عن أو زيادة على. وقد جاء في سورة المؤمنون «فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون» (٧) أي سوى ذلك أو زيادة على ذلك. وجاء أيضاً في سورة المعارج «فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون» (٣١). هذا مع أن وراء وردت في مواضع أخرى بمعنى خلف على الأصل.

وإذا لم ينتبه القارئ أو السامع لمعنى وراء في سياق الجملة أو بيت الشعر خفي عليه المراد، كما توارى عنه وجه البلاغة في المجاز وحسن الإيجاز ودقة الدلالة.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أحمد شوقي أمير الشعراء قلّ بين الشعراء الحديثين من يماثله في الاطلاع على خفايا معاني الألفاظ واستعمالاتها في شتّى الشؤون. له قطعة شعرية يغنيها الموسيقار محمد عبد الوهاب مشهورة جداً يستعمل الشاعر فيها وراء في بيتين أردت في صباي إحراج فريق من المختصين باللغة فطلبت إليهم مساجلةً أن يوضحوا معانيهما فلم يحيروا جواباً مع أن كلا البيتين جميل سهل الألفاظ رقيق الديباجة.

البيت الأول:

يا شراعاً وراء دجلة يجري في دموعي تجنبتك العوادي

يتصور أمير الشعراء المغنّيَ المطرب ــ وقد سافر إلى بغداد ــ فيخاطب الزورق الذي يحمله في دجلة ويدعو له بالسلامة. وهو حين يتذكره تغرورق عيناه بالدموع شوقاً وحنيناً فكأن الزورق يجري في دموعه خيالاً فضلاً عن جريانه حقيقةً في النهر.

وهذا التخيّل من طبيعة الشعر التي تقوم على المجاز والمبالغة والتصور الغريب والإتيان بالشيء الجديد.

والبيت الثاني:

قف تمهل وخذ أماناً لقلبي من عيون المها وراء السواد

يتصور الشاعر الغواني والأوانس العراقيات الدعج العيون، فهو يخشى على قلبه سحر العيون السابية إذا رنا إليها وهي أمامه. فوراء هنا بمعنى قدام. أو هو أمامها أي هي خلفه. ويمكن أن نقول أيضاً. إن تلك العيون نجلٌ واسعة يخشى على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نفسه أن يبـــرّح سوادها السابي به بعد تأمّله لها. وعندئذ تكون وراء بمعنى زيـــادة على سحرها وجمالها.

ثم إن جمال الشعر إما أن يكون في بساطته وصراحته ودخوله مباشـــرة إلى القلب كما قال شوقي:

وما الفن إلا الصريح الجميـــل إذا خالط النفس أوحى لهـــا

أصله أن يقول: أوحى إليها. وإنما تذكر قوله تعالى في سورة الزلزال «بـأن ربك أوحى لها»(٥). وإما أن يكون جمال الشعر في بعض الخفاء يحفز الســـامع أو القارئ على تلمس هذا الخفاء فيجد لذة في الاهتداء إليه. وكأنه يشارك في الإنشـاء والنظم. ومن هذا النوع بيتا شوقي اللذان فيهما وراء، إذ يضفي هذا الخفاء شـــيئاً من الرواء مع الإيجاز والسهولة والموسيقى التي تستهوي السامع وتكاد تصرفه عـــن ابتغاء المعنى الدقيق.

* * *

بعض الألفاظ العربية إذا خرج بعض شؤونها كالإعراب مثلاً عن القواعـــد المألوفة يدعوها فريق من اللغويين شاذة للاختصار. ولكنها إذ شذّت فلسبب مـــن الأسباب يجدر البحث عنه وتلمّسه. وهذا التلمس والبحث لونٌ من الابتكار. مـــن هذه الألفاظ أشياء جمع شيء. فهو ممنوع من الصرف. نقول جمعت أشـــياءَ دون تنوين وسأحدثك عن أشياءَ بفتح الهمزة. وفي القرآن الكريم «يا أيها الذين آمنـوا لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تسؤكم» (المائدة ١٠١).

على أن جميع الجموع التي على وزن أفعال وهو جمع قلة ســـواء كـــانت الهمزة أصلية أو منقلبة عن حرف علّة أو للإلحاق مصروفة مثل أعباء وأهـــواء وآراء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأسماء (جمع اسم) وأنباء وأعداء... وهلم جراً ما عدا ما جاء لفظه على هذا الوزن وهو اسم لحسناء كأسماء وهذا اللفظ مشتق من الوسامة. وإذا رجعنا إلى كتب النحو والصرف واللغة وجدنا العلماء يحاولون تعليل هذا الشذوذ. ولكنا نحن نرجع إلى المفرد وهو شيء ونقول: إنه إذا كان الشيء على وزن فَعْل فهو أحد مصادر شاء. وعندئذ لا يجوز جمعه. ولو جمعناه عند الحاجة إلى جمعه لصرفناه مثل قولنا قيء وأقياء. ولكن هذا المصدر ليس هو مفرد أشياء هنا.

أما إذا كان الشيء اسماً مفرداً كما هو في غالبية الاستعمال أو كلّه فأصله في رأينا شَيِيء على وزن فعيل بمعنى المراد فإننا إذا أردنا شيئاً فرزناه من غيره وخصصناه بالمشيئة. وقد تخفف الهمزة فيقال شيّ. وجمع فعيل إذا كان معتل اللام أفعلاء كنبي وأنبياء وولي وأولياء. فجمع شييء وشيي هو أشييا. ثم خفف اللفظ لكثرة الاستعمال فأصبح أشياء ولوحظ اشتقاقه فمنع من الصرف كما منع أفعلاء بوجه عام. وهكذا نتفهم شذوذ أشياء بين سائر أوزان الجموع المشابهة المنتهية بالهمزة. وكذلك تَحَوَّل لفظ شييئ إلى شيء وشيّ لكثرة الاستعمال والخفة وفهمنا سراً من أسرار اتساق اللغة وجموعها.

على أن لفظ الشيء له علاقة بعلم الكلام وراء علاقته باللغة. ولابد من تناول هذه العلاقة وغير هذه العلاقة. نعتمد كتاب «الكليات» لأبي البقاء بعض الاعتماد على أن يكون كلامنا أوضح وأوسع. قال سيبويه في كتابه «الشيء يقع على كل ما أُخْبر عنه» فيشمل الموجود والمعدوم ويقع على الواجب والممكن والممتنع.

وثمة مشكلة. وهي هل يتناول الشيء الباري؟ لقد ورد في سورة الأنعام: «قل أيّ شيء أكبر شهادة قل الله»(١٩). وأيٌّ هي كلمة يراد بها بعض ما تضاف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إليه فإذا كانت استفهاماً كان جوابها مسمّى باسم ما أضيفت إليه. وقوله تعالى «قل الله» جواب. أي الله أكبر شهادة. فالله مبتدأ والخبر محذوف، فيكون دليلاً على أنه يجوز إطلاق لفظ الشيء على الله تعالى. وهذا لأن الشيء اسم للموجود، ولا يطلق عند الأشاعرة على المعدوم، والله تعالى موجود، فيكون شيئاً. ولذا نقول الله سبحانه وتعالى شيء لا كالأشياء (تفسير الإمام النسفي) وهذا ضرب من التأويل يتأوله المفسرون. والمراد من الآية الكريمة أيّ شهيد أو شاهد أكبر شهادة فجاء التعبير بأعم العام وهو الشيء لإفحام الخصم ولوناً من ألوان البلاغة (تفسير الكشاف). وإذا جاز إطلاق لفظ الشيء على الباري فعندئذ يعدُّ اشتقاقه من اسم الفاعل أي بمعنى الشائي أي المريد. ويكون جمعه في هذه الحال على وزن فُعَلاء كشاعر وشعراء وهو ممنوع من الصرف أيضاً. والله سبحانه وتعالى هو المريد وهو المراد في أول الأمر وفي نهايته.

ثم إن علماء الكلام اشتقوا من الشيء مصدراً صناعياً فقالوا شيئيّة. ورأوا أنها على نوعين: شيئية ثبوتية وشيئية وجودية. فالشيئية الوجودية هي وجود الأشياء بقدرة الله من علمه إلى أعيانها.

والشيئية الثبوتية ثبوت المعلومات في علم الله متميزاً بعضها عن بعض. وهي على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يجب وجوده في العين (أي في الجوهر) كذات الله الواجب سبحانه.

وثانيها: ما يمكن بروزه من العلم إلى العين وهو الممكنات.

وثالثها: ما لا يمكن وهو الممتنعات.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومتعلق إرادته وقدرته هو القسم الثاني دون الأول والثالث. ومن هنا يقال: مقدورات الله أقل من معلوماته لشمول العلم الممتنعات مع عدم تناهي المقدورات وعدم انقطاعها. ولا يخفى أن ما وجد من معلومات الله ومقدوراته فهي متناهية وما لم يوجد منهما فلا نهاية لهما. فلا يقال: إن أحدهما أكثر من الآخر إذ لا ينتهى إلى حد لا يوجد فوقه حد آخر.

كلام أبي البقاء هذا يتضمن أن المفكرين المسلمين انتبهوا لحساب اللانهايات. وفيه أن الجزء يساوي الكل. ونريد أن نشرح هذا الأمر. وهو أن معلومات الله لا نهاية لها، ومقدوراته لا نهاية لها. وبسبب عدم التناهي هذا فالمعلومات والمقدورات متساويتان مع أن المعلومات أكثر عدداً من المقدورات. ولابد في بيان هذا التساوي من أن نضرب مثلاً بسيطاً في الرياضيات:

مج١ هو مجموع الأعداد الطبيعية الصحيحة: ١,٢,٣,٤,٥,٦,٧...

مج٢ هو مجموع الأعداد الفردية منها: ١,٣,٥,٧,٩ ...

نكتب ن = $\frac{\text{مج١}}{\text{مج٢}}$ ، ن – ١ = $\frac{\text{مج١}}{\text{مج٢}}$ – ١ = $\frac{\text{مج١ – مج٢}}{\text{مج٢}}$

فإذا جنح المخرج (المقام) نحو اللانهاية غدت النسبة $\frac{\text{مج١ – مج٢}}{\text{مج٢}}$ = ٠

ومنها مج١–مج٢ = ٠ أي مج١ = مج٢

هذا في حساب الإلهيات الكبرى.

وقد عمد الرياضي النمساوي شرودنغر، وهو من حملة جائزة نوبل في كتيب صغير له بعنوان «العلم والثقافة الإنسانية» كنا نقلناه إلى العربية، إلى إثبات الجزء يساوي الكل في مجال اللانهايات الصغرى. وذلك بطريقة لطيفة يمكن الرجوع إليها في الكتيّب نفسه.

ومادة شاء غنية كثيرة الاستعمال. ثمة مصادر متعددة لها زيادة على الشيء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذي هو مصدر أيضاً كما سلف. منها مشيئة ومشاءة ومشائِيَة. والاسم الشِيئة. ويقال: كل شيء بشيئة الله كما في القاموس المحيط. وللشيء غير المصدر جموع متعددة، وهي جمع الجمع فيقال لجمع أشياء: أشياوات وأشاوات وأشاوي وأشاوَى وأشايا.

وتصغير الشيء شييئ بضم الشين وهذا هو القياس، وبكسرها، وشويء. وقد تسهل الهمزة فيقال شويّ. وقد درجت في اللغة المحكية.

كذلك في اللغة المحكية لفظ أيش. وهو محرف عن أي شيء؟ وقد جرى هذا التحريف منذ القديم. ربّما يجدر أن نطرّي حديثنا بهذه النادرة من نوادر النساء والجواري وردت في «نهاية الأرب» وهي أن الخليفة العباسي المتوكل قال لجارية استعرضها: أنت بكر أم أيش؟ قالت: أنا أيش يا أمير المؤمنين.

هذا وأكثر مصادر شاء استعمالاً المشيئة. وهي كما أشرنا إلى ذلك آنفاً بمعنى الإرادة والقصد. وقد فرق بينهما علماء الكلام والصوفية عند نسبتهما إلى الله عزّ وجلّ. ولابأس أن نقتصر هنا على ما جاء في كتاب «التعريفات» للجرجاني:«مشيئة الله تجلّيه الذاتي والعناية السالفة لإيجاد المعدوم أو إعدام الموجود. وإرادته عبارة عن تجلّيه لإيجاد المعدوم. فالمشيئة أعم من وجه من الإرادة».

لفعل شاء علاقة بالبلاغة العربية. وهي حذف مفعوله إذا لم يكن في تعلقه بمفعوله غرابة ولا إبهام، كقولي لصديقي: إذا شئتَ جئتني غداً، أي إذا شئت أن تجيئني غداً فعلت ذلك. وفي القرآن الكريم يجيء فعل المشيئة دون مفعوله، لأنه سبحانه وتعالى قادر على كل شيء، نحو قوله تعالى: «ولله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين» (الأنعام ١٤٩) أي فلو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين، ونحو قوله تعالى: «والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يجعله على صراط مستقيم» (الأنعام ٣٩). أي من يشأ إضلاله يُضْلِلْهُ ومن يشأ جَعْلَه على صراط مستقيم جعله عليه.

ومنه قول طرفة في معلقته يصف ناقته:

فإن شئتُ لم تُرْقِلْ وإن شئت أرقلت مخافة مَلْوِيٍّ من القِدّ مُحصد

الإرقال الإسراع في السير، والملويّ السوط المفتول، والقِدُّ ما قُدَّ من الجلد، والمحصد الشديد الفتل. ومثل شاء في حذف مفعوله إذا امتنعت الغرابة لفظ أراد.

يقول البحتري في وصفه دمشق وتنويهه بجمالها أمام الخليفة المتوكل حين جاءها لينظر هل يتخذها عاصمة:

أما دمشق فقد أبدت محاسنها وقد وفى لك مطريها بما وعدا

إذا أردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا

أي إذا أردت أن تملأ العين ملأتها من بلد...

فإن كان بالمفعول به غرابة وإبهام حسن ذكره ليتقرر في نفس السامع ويأنس به، كقولي: لو شئتُ أن أصعد جبل قاسيون ماشياً وأنا في هذه السن لفعلت. وعليه قول الشاعر أبي الهندام الخزاعي يرثي ابنه. وهو مما يستشهد به علماء البلاغة:

ولو شئت أن أبكي دماً لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

فبكاء الشاعر دماً غريب ومبهم، ولذلك لطف ذكره مفعولاً لشئت.

ومن باب الحذف في رأينا ما شاء الله للتعجب، وإن شاء الله في الشرط وفي أمل حصول المراد.

لفظ الشيء له علاقة بالرياضيات. وذلك أن العرب استعملوا لفظ الشيء للمجهول الذي يراد معرفته، ورمزوا إليه بحرف الشين. ثم أسقطوا النقاط الثلاث للتسهيل فأصبح حرف السين رمز الشيء في المعادلات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الرياضية الجبرية، كما أن جزء الشيء هو معكوسه أي ١/س. ونستطرد فنقول: جداء الشيء في نفسه هو المال، وجداء الشيء في المال هو الكعب، وجداء الشيء في الكعب هو مال المال ثم مال الكعب وكعب الكعب وهلم جرّا. وبهذه المناسبة رمز الجذر في الجبر مأخوذ من حرف الجيم فيه. وفي رأينا أن لفظ مال مأخوذ من السنسكريتية بمعنى الكثرة.

* * *

بعض الألفاظ في اللغات الأجنبية مطموسة أصوله. ومع ذلك فالبحث قد يجلو هذه الأصول. وكثيراً ما تستعير اللغات ألفاظاً من لغات أخرى لها بها احتكاك. من هذه الألفاظ allache في الفرنسية. يشرح معجم Lexis الفرنسي هذا اللفظ بأنه نوع صغير من سردين البحر المتوسط. ويشير معجم لاروس الموسوعي ذو الأجزاء الثلاثة إلى أن اللفظ من أصل عربي. وقد تَصَعَّب العثور أول الأمر على هذا الأصل. ثم عثرنا عليه في معجم دوزي. ففيه لاج: نوع من السمك الصغير كالسردين وأمثاله كما جاء في «معجم الادريسي» الملحق بقسم من كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للادريسي طبعة دوزي ودي غويه، ليدن ١٨٦٦. ولاشة بالمعنى نفسه تقريباً كما جاء في معجم بوسيي Beaussier العربي الفرنسي طبعة الجزائر ١٨٧١. وقد دخلت لام التعريف في اللفظ الفرنسي. هذا وفي العربية لفظ لجا مخففاً ومهموزاً بمعنى الضفدع تذكره المعجمات. وهذا المعنى غير سمك السردين. ويصعب الجزم هل لاج أو لاشة تحريف لجا أم هما شيئان مختلفان.

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن الألفاظ الغامضة الأصول مازوت. وهو كثير الاستعمال في اللغة الفرنسية. وقد اشتقت منه ألفاظ أخرى في الفرنسية mazoutage, mazouter démazoutage, démazouter. تستعمل هذه الألفاظ غالباً في البحرية.

وله مرادف في اللغة الإنكليزية fuel- oil أي الوقود الزيتي. وفي أغلب المراجع نجد أن لفظ مازوت آت من الروسية. ولكن معجم لكسيس يشير إلى أن اللفظ الروسي آت من العربية. ونحن نقول: إن اللفظ مشتق في الأصل من الزيت. فنقول للشيء الذي فيه زيت أو عُمل بالزيت مَزِيتٌ، على النقص، ومزيوتٌ على التمام، كما في تاج العروس. والأخير انتقل إلى الروسية. ولاسيما أن بلاد أَذْرَبِيجان كثيرة زيت الصخر أو البترول وهو ما سماه العرب أيضاً النفط. ومن المعلوم أن اللغة الروسية تتمثل كثيراً من الألفاظ الأجنبية وتدّعي أصالتها فيها.

* * *

ومن الألفاظ الحِْرفية العربية التي دخلت اللغات الأجنبية الجلفاط. ومعناه العامل الذي يسدّ دروز السفن الجدد بالخيوط والخرق بالتقيير. وعامّة ذلك الوقت يسمونه القلفاط بالقاف بدل الجيم. وقد جلفطها جلفطة سوّاها وقيّرها. وقيل أدخل بين مسامير الألواح وخروزها مُشاقةَ الكتان ومسحها بالزيت والقار. نجد مثلاً في معجم روبير Robert الفرنسي لفظ calfat وأنه جاء من الإيطالية calfato, وإليها من العربية بطريق اللغة اليونانية البيزنطية. ومن اللفظ نفسه جاء calfatage, .calfater وشرح هذه الألفاظ يقابل تماماً ما جاء في العربية. ويشير المعجم الفرنسي إلى زمن انتقال كل من هذه الألفاظ إلى الفرنسية. وقد انتقل أقدمها في القرن الثالث عشر الميلادي.

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن الألفاظ الأجنبية التي نرى أنها من أصل عربي Charme بمعنى نوع من الشجر. وهو في العربية الشرم. وقد اشتق من هذا اللفظ Charmille وهو الممرّ المحفوف بشجر الشرم على الجانبين. ونحسب أن اللفظ دخل الإسبانية أوّلاً ثم منها إلى الفرنسية.

* * *

وكذلك لفظ النبات الجميل الساحر الذي تغنّى به شعراء العرب. وهو شقائق النعمان. فاللفظ anémone آت من العربية أي من النعمان. وهو موجود في جميع اللغات الأوربية: إسبانية وإنكليزية وألمانية وروسية وإيطالية. ونحن نرى أن كل لفظ علمي أو فنّيّ قديم مشترك بين اللغات الأوربية فهو لفظ حضاري آت من العربية، انتقل عند ترجمة المؤلفات العربية إلى اللاتينية. ولا غضاضة في اقتباس لغة ألفاظاً من لغات أُخَر. ولكنا نبحث كما قلنا آنفاً عن ألفاظ غامضة الأصول أو محرّفة عن أصولها تحريفاً شديداً.

ولابدّ من أن نقف بعض الشيء هنا تفريقاً بينه وبين نبات يشبهه قليلاً لهج الشعراء به أيضاً. يقول ابن الرومي متفنناً في الوصف ومفتوناً بأزهار ذلك النبات إبّان الربيع :

أشقائق النعمان بين ربا ... نعمان أنت محاسن النِّعَم
غدت الشقائق وهي واصفة ... آلاء ذي الجبروت والعِظَم
تَرَفٌ لأبصار كُحِلْنَ بها ... ليرين كيف عجائب الحِكَم
شُعَلٌ تزيدك في النهار سنا ... وتضيء في محلولك الظُّلَم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أَعْجِبْ بها شُعَلاً على فَحَمٍ لم تشتعل في ذلك الفحم
وكأنما لمع السواد إلى ما احمرّ منها في ضحى الرَّهَم
حدق العواشق وُسِّطَتْ مُقَلاً نهلت وعَلَّتْ من دموع دم
هاتيك أوخَيَلانُ غاليةٍ أضحت بها الوجنات في ذَمَمِ
يا للشقائق إنها قِسَمٌ تُزْهى بها الأبصار في القِسَم
ما كان يُهدِي مِثْلَها تُحَفاً إلاّ تطوُّل بارئ النَّسَم

والنعمان في العربيّة هو الدم. فكأنها بلونها الأحمر القانئ شُقَّتْ من الدم. وهي من الفصيلة الشقّاريّة وأوراقها التويجية حمر على الغالب. ولكن قد تكون بألوان أُخَر كالأسود و الأصفر. وهي تنمو في مرج الزبداني وعين نهر بردى . وقد هجنها الهولنديون وحصلوا منها على أصناف بديعة. ويقال لها في العربية أيضاً شَقِرٌ وسَكَبٌ.

والنبات الذي يشبهها في حمرتها هو الخشخاش. ويقال له شقيق وشقشقيق coquelicot, poppy ينبت في الحقول والحروث ولا سيما حقول القمح. وهو من الفصيلة الخشخاشية. يقول الصنوبري الحلبي فيه وقد رآه في مروج حلب في إبّان الربيع:

وكأن مُحْمَرَّ الشقيـ ق إذا تَصَوَّب أو تَصَعَّد
أعلام ياقوت نُشِر نَ على رماح من زبرجد

وجمع الشقيق شقائق. فاختلط الجمع مع شقائق النعمان الذي مفرده شقيقة. والتبس اللفظان على بعض الشعراء. يقول القاضي عياض واصفاً الشقيق في الحروث والزروع:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انظـــر إلى الـــزرع وخاماتـــــه تحكي وقد مالت أمـــام الريـــاح
كتيبـــــةٌ خضراء مهزومـــــــة شقائق النعمـــان فيـــها جـــراح

* * *

ومن تلك الألفاظ أيضاً لفظ الأبق. فالمعجمات الأجنبية تقول إن أصلـــه abaca الإسباني، وإنّه مأخوذ عن اللغة المحلية في جنوبي شرق آسيا. «في القـــاموس المحيط» «الأبق محركة القنب أو قشره» وهو بهذا المعنى تقريباً في اللغات الأجنبيـــة. ويصنع منه حبال وألياف وحُصُر.

* * *

ومن الألفاظ العربية التي دخلت اللغات الأجنبية المُلغـــم. فـــأصبح فيـــها amalgame بإثبات همزة مزيدة في أول اللفظ ربما أتت من ألف التعريف.

ثم دخل العربية مرة جديدة فقالوا ملغمة.

* * *

إن ألفاظاً عديدة في اللاتينية واليونانية لها أشباه في العربية. وثمة لغة لاتينيـــة قديمة وأخرى لاتينية متأخرة ازدادت غنى بالألفاظ العلميـــــة والحضاريـــة لـــدى الترجمات إليها عن العربية. وثمة اللغة اليونانية البيزنطية اقتبست طائفة من الألفـــاظ العربية إبان الحروب السجال بين بيزنطة والدول العربية. ولابد من الأناة والـــتريّث في الحكم. نجد محققي كتاب «نهاية الأرب» عند ذكر القنديل مثلاً يزعمـــــون أن اللفظ آت من اللاتينية. والقنديل لفظ عربي جاء في الشعر العربي القـــديم ودخـــل اللغات الأخرى التي تطمس أصله ماعدا اللغة الإسبانية التي تشير إلى أصله العربي.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وربما تحدر هذا اللفظ من اللغة الأكّادية القديمة الغنية.

* * *

من خصائص اللغة العربية ومزاياها سعة الاشتقاق وأنواعه. أذكر هنا بعض الأمثلة: الفعل المتعّدي إذا ضُعِّف دلّ على الشدة أو الكثرة. نقول: فَتَح الباب، وفتّح الأبواب إذا كانت كثيرة. وهكذا لفظ حَطَم وحطّم.

أما إذا كان الفعل لازماً فيفيد التضعيفُ التعديةَ وإنجاز الفعل حيناً بعد حين. نقول: نزّل الأولاد متاع البيت من الطابق الأعلى، أي حيناً بعد حين وتارة بعد تارة، على خلاف أنزل الذي يفيد إنجاز الفعل دفعة واحدة.

وقد يحافظ الفعل اللازم على صفته اللازمة إن ضُعّف. وعندئذ يراد به حصول الفعل وقتاً تلو وقت. يقول عمر بن أبي ربيعة في قصيدته الرائية المشهورة التي يصف فيها زيارته لحبيبته ليلاً:

فلما فقدت الصوت منهم وأُطْفِئَتْ مصابيح شُبَّت بالعشيّ وأنؤر

وغاب قمير كنت أرجو غيوبه وروّح رعيان ونوّم سمّر

الشاهد في روّح ونوّم. وذلك أن الرعيان يرجع بعضهم مساءً وراء بعض، والسمار ينام بعضهم بعد بعض. لا ينام السمار في مختلف الأندية دفعة واحدة. ولذلك قال الشاعر:

روّح رعيان ونوّم سمّر.

وكذلك لفظ مات. يموت المرء وحده. وقد يموت مع غيره دفعة واحدة. ولكن إن أردنا التعبير عن موت جماعة واحداً تلو الآخر وفي فترات المجاعة أو غيرها قلنا مَوَّتوا. وبهذا المعنى جاء قول تميم بن جميل حين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قُدّم للقتل بين يدي المعتصم بالله الخليفة العباسي في جناية جناها فتكلم واعتذر بأجمل بيان وأرقه وقال شعراً مؤثّراً يرى فيه أن الموت آتيه آجلاً أوعاجلاً. ولكن وراءه صبية ضعافاً يعيشون إن عاش، وإن مات مات بعضهم على إثر بعض:

وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقت

ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت

فإن عشت عاشوا خافضين بغبطة ... أذود الردى عنهم وإن مت موّتوا

وقد وهبه المعتصم لصبيته وعفا عن هفوته.

* * *

وكذلك لفظ وقف وأوقف ووقّفَ. لكل من هذه الصيغ معان وكل منها لازم ومتعدّ. ولكنا نفرق بين معانيها.

نقول: ما وقفك هنا؟ أيْ أيُّ أمر شغل بالك فجعلك تقف هنا؟

ونقول: ما أوقفك هنا؟ أيْ أيُّ حاجز مادي منعك من المضيّ في سبيلك؟

ونقول: من أوقفك هنا؟ أيّ أيُّ الرجال أو الشُّرط أوقفك هنا؟

ونقول: أوقف الشيء: أقامه، ووقّفه: أقامه بعد مِراس.

ونقول في اللازم: وقف لمن يقف فوراً. وأوقف عن الكلام أي سكت .

ونقول: وقّف الجمع إذا وقف بعضهم تلو بعض. وعلى هذا قول الشاعر يفتخر بعنجهيته وكبريائه:

إذا نحن سرنا سارت الناس خلفنا ... وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك أن الجماعة لا تقف دفعة واحدة بل لابد من أن يقف المتقدم فيهم ثم تتوالى الوقوف حسب الصفوف كما تقف القاطرة وتتبعها المقطورات.

* * *

سألني بعض الأصدقاء: ماذا تقول مقابل handicapped, handicapéللذي أصابته عاهة فعاقته وجعلته يتخلف عن الأسوياء في بعض الأمور: معوق أو معاق أو معوّق ؟ فوجدت أن الألفاظ العربية سليمة، مع أن بعض المعجمات لا تورد لفظ أعاق فهو معاق. ثمة لفظ رابع يجوز استعماله وهو معتاق، إلا أن هذه الصيغة يستوي فيها اسم الفاعل واسم المفعول. ومع ذلك يصح التفريق في معاني تلك الألفاظ وفروق دلالاتها إن أردنا ذلك. وهذا يستبق تقدم العلم في الإشارة إلى تلك الفروق. فالمعوق هو المولود بعاهة، والمعاق من أصابته عاهة بعد ولادته، والمعوّق المصاب بأكثر من عاهة أو عائق. وهكذا نتبين درجات الاعتياق بحروف تكاد تكون واحدة. ثم إن من خصائص اللغة العربية أن حروفها ذوات دلالات في حدود ذواتها أو حين ينضم بعضها إلى بعض. لقد نوه بذلك اللغوي المشهور ابن جنّي في خصائصه ثم اللغوي الكبير أحمد بن فارس في كتابه «معجم مقاييس اللغة» إذ عمد فأبرز لكل حرفين مجتمعين أو ثلاثةٍ أصولَ دلالاتها.

وفي رأينا يجدر إشاعة هذا المعجم وأمثاله بين أيدي المتعلمين تيسيراً لهم في تفهم معاني الألفاظ تفهماً سهلاً وسائغاً، وكذلك اعتماده لدى وضع المصطلحات الحديثة وعند التعريب، لعله يقدم بعض العون أو يُلهِم ومضة من الإلهام.

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أعود إلى مقدمة هذا الحديث، وهو أن اللغة العربية إذا اشتملت على بعض الصعوبات عند التدقيق والتعمق فهي في ذلك كسائر اللغات. وربما انقلبت الصعوبات فغدت مزايا لها في دقة البيان و في بعض الأحوال.

قيل للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان: أسرع إليك الشيب! فقال: شيبتني كثرة ارتقاء المنابر مخافة اللحن.

ويروي ابن عساكر في «تاريخ دمشق» أنه لحن جليس لعبد الملك بن مروان. فقال رجل آخر من جلسائه: زد أَلِف. فقال له عبد الملك: وأنت فَزِدْ ألفاً. وفي «نهاية الأرب» للنويري أن العريان بن الهيثم «قدم على عبد الملك، فقيل له: تَحَفَّظ من مسلمة. (ومسلمة هو ابن عبد الملك وكان أميراً وقائداً للجيش)، فإنه يقول: لأن يلقمني رجل بحجر أحبُّ إليّ من أن يسمعني رجلٌ لحناً. فأتاه العريان ذات يوم فسلّم عليه. فقال له مسلمة: كم عطاءَ ك؟ قال: ألفين. فنظر إلى رجل عنده وقال له: لحن العراقي. فلم يفهم الرجل عن مسلمة. فأعاد مسلمة القول على العريان، وقال: كم عطاؤك؟ فقال: ألفان. فقال: ما الذي دعاك إلى اللحن أولاً والإعراب ثانياً؟

قال: لحن الأمير، فكرهت أن أعرب، وأعرب فأعربت. فاستحسن قوله وزاد في عطائه».

وفي «نهاية الأرب» في الموضع ذاته أنه «وقف نَحْويٌّ على بقّال يبيع الباذنجان. فقال له: كيف تبيع؟ فقال: عشرين بدانق. فقال: وما عليك أن تقول: عشرون بدانق؟ فقدّر البائع أنه يستزيده، فقال: ثلاثين بدانق. فقال: وما عليك أن تقول: ثلاثون؟ فما زال على ذلك إلى أن بلغ السبعين. فقال: وما عليك أن تقول: سبعون؟ فقال: أراك تدور على الثمانون، وذلك لا يكون أبداً».

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومهما يكن من أمر فلكل جماعة مستوى في اللغة. والكلام يشف عن ثقافتهم ومعرفتهم. وكلام الخاصة المثقفة غير كلام العامة اللحّانة. والمهم في الكلام والكتابة البيان وبلوغ القصد. وكلام المرء يتناسب هو ومستوى المخاطب. حديث الغزل مع الأحبة مثلاً غير حديث العلماء واللغويين. وقد عرّف العلماء البلاغة بأنها «مراعاة الكلام لمقتضى الحال». وزادوا شرطاً وهو سلامته من التنافر والتعقيد ونحوهما. ومتى تفاوتت مستويات المتحدثين أدّى التفاوت إلى الإضحاك. يروى أن أبا علقمة اللغوي «قال لجارية كان يهواها: يا خريدة! إخالك عروباً. فما بالك نمقك وتشنئيننا؟ فقالت: ما رأيت أحداً يحب أحداً ويشتمه سواك».

فالكلام الحوشيّ الخشن وإن تضمّن مدحاً لا يناسب الفتيات ونعومتهن وملاستهن حتى المتأدبات منهن اللواتي يحسنّ فن الكلام.

«قيلٌ اشترى رجل من أصحاب القاضي العوفي جارية فعاصته و لم تطعه. فشكا ذلك إلى العوفي فقال: أَنْفِذْها إليّ حتى أكلمها.

فأنفذها إليه. فقال لها: يا عروب! يا لعوب! يا ذات الجلاليب! ما هذا التمنّع المجانب للخيرات، والاختيار للأخلاق المشنوءات؟ قالت له: أيّد الله القاضي! ليست لي فيه حاجة. فمُرْه يبيعني. فقال: يا منية كل حكيم، وبحاث عن اللطائف عليم! أما علمت أن فرط الاعتياصات من الموموقات على طالبي المودات؟!، فقالت الجارية: ليس في الدنيا أصلح لهذه العثونات المنتشرات على صدور أهل الركاكات من المواسي الحالقات!

وضحكت وضحك أهل المجلس. وكان العوفي عظيم اللحية».

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جاء في «تاريخ دمشق» أيضاً أنه قيل لعبد الملك بن مروان: «عجّل إليك الشيب!

فقال: وكيف لا يعجل عليّ وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرّتين؟!».

يريد خطبه في الناس يوم الجمعة عند الصلاة.

لقد كان عبد الملك من كبار ملوك بني أمية، وهو يخشى في خطبة الجمعة وغيرها من نُبَهاء رعاياه أن يتعقبوا كلامه بالتناول والنقد. فكيف بالأساتذة والمعلمين وهم يعرضون صفحات عقولهم على الطلاب والمريدين والمستمعين مرّات عديدة في الأسبوع الواحد. فلا عجب أن تشتعل رؤوسهم شيباً وتشعثاً.

ومع ذلك فإن الفيلسوف الفرنسي غستون بشلار يقول في بحثه للجدل العلمي الحديث:

إن تحصيل العلم معناه التجدد الفكري أو هو الشباب الدائم!

ويرى أبو تمام حبيب بن أوس الشاعر المبدع رأياً آخر أكثر شاعرية حين يقول:

فلا يَرُعْكِ بياض في عوارضه فإنه بسمات العلم والأدب

كأن الأدب والعلم يعوّضان أيام الشباب!

بَيْدَ أنّ حكيم المعرة يدّعي أنه استبدل من كل شيء فَقَدَه بدلاً يُغْنِي غَناءه، ولم يجد بدلاً يقوم مقام الصبا:

وقد تعوّضْتُ من كلٍ بمشبهه فما وجدت لأيام الصبا عوضا

ولكن شاعراً آخر قد ذاق ملذات العيش وعرف قيمة الحياة، فهو يتمنّى أن يطول به العمر ويتملّى أقصاه وأكلأه ولو مع الشيب الذي تعيبه عليه الحسان فإن وراء الشيب ما وراءه:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تَعيب الغانيات عليّ شيبي ومَنْ لي أن أُمَتَّعَ بالمَعِيبِ

* * *

الخلاصة أن المصاعب إذا وجدت في تعلم اللغة وإتقانها إلى حدٍ ما فهي لا تذلل إلاّ بالمزاولة والميل إليها والصبر عليها. وعندئذ تتجلى مزايا اللغة التي لا تدرك إلا بالمحبة. وكما أن المحب لابدّ له من أن يتحلّى بالصبر والوفاء والتضحية لكي ينال ما يصبو إليه في حبه، زيادةً على لذة المحبة في ذاتها لأن للحب غائية في ذاته، كذلك يلزم لطالب الاختصاص بلغة ما نصيب من التضحية والصبر وكثيرٌ من المحبة. ولا غرو أن يتسهل جانب الحبيبة بعدئذ ولو كان وعراً وتلين عريكتها ويسلس جامحها وقد تسعف وتمتع. ولن يخيب مطلب المحب أبداً من جنى الثمرات الشهية الطيبة.

الحب أصل النجاح في العمل وفي كل مسعى. وقد قلنا مرّة في تحية الشاعر الهندي الباكستاني محمد إقبال على لسانه في أحد مهرجانات ذكراه:

ولو دَرَسْتَ علوم الأرض قاطبة من دون حب لضاع الجهد منك سدى

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net